رواية

مسالك الأحبة

خيرى عبد الجواد



رواية

مسالك الأحبة

خيرى عبد الجواد



مسالك الأحبة

روايـــة

خيرى عبد الجواد

الغـــلاف : محمد بغدادى

الطبعة العربية الأولى : يناير ١٩٩٨

رقم الإيداع : ٩٨/٢٥٠٠

الترقيم الدولى : I.S.B.N. 977-291-058-6



السلسلة الأدبية

رئيس المركز

على عبد الحميد

مدير المركز

محمود عبد الحميد

المشرف العام

على السلسلة الأدبية

خيرى عبد الجواد

الجمع والصف الإلكترونى

مركز الحضارة العربية

تنفيذ : محمد الغلبونى

٤ ش العلمين عمارات الأوقاف

ميدان الكيت كات

تليفاكس : ٣٤٤٨٣٦٨

إلــى
باسم ورضوى

1

فى ذكر الرحلة
وحراس مقابر الأمراء
كذا حراس القبة

ما الذى جرى لى يارب

هل كنت على يقين من أنى زائره فى يوم ما ؟ إن كنت قلت ذلك فقد صدقت والله ، وهل وقوفى تحت سفحه وأنا بجانبه مثل قطرة فى بحر محيط ، إلا قدراً مكتوباً على جبينى شفته الآن .

كانت روحى تصعد قبلى ، وخطوتى القاصرة عن بلوغ سفحه تسبق بدنى ، هو الآن فى عينىّ ، وقلبى ينز شوقاً ورهبة ، أخذت أصعد وأصابعى مشتبكة فى يد صاحبى السالك معى ، وكلما قطعت مرحلة نظرت تحتى فارتجف فؤادى ، وظهرت لى صعوبة المرتقى ، اقترابى من قمته يعنى تحققى، قلبى يسيل أمامى ، يتشوف الرؤية قبلى ، يسبقنى عبر المدق الحجرى الضيق ، كنا نصعد غير مبالين بنبض البدن والروح ، وصوت لهاثنا يطغى على صوت سكون الصمت المسموع يردده فضاء مسكون برفات أجداد قيل من العماليق جاءوا بواد غير ذى زرع فزرعوا وحصدوا وبنوا وعمروا ومضوا بعد أن تركوا لنا ما يدل عليم .. استأنفت وصاحبى عروجنا نحوالقمة السابحة فى لجة سماء زرقاء شاهقة الزرقة بلون شريط النهرالسارى تحت سفح الجبل العملاق ، الرابض فى مكانه منذ أن خلق الله الأرض ومن عليها ، وما هو إلا أحد رواسى الأرض خشية أن تميد ، وتد ضخم يُرى على مسيرة يوم من شتى جهات المعمورة ، ما قصده أحدهم وفلح ، وما من عاشق إلا ورام الاجتماع بمعشوقه فوقه ، التمسه المحبون فى الأزمنة والأوقات المختلفة ، قيل إن مسالكه مختبر للعشق

الصادق ، من عشق صادقاً وأخلص لوجه محبه سلك ونجا وكان من البالغين ذروته ، وقيل إنه إذا الحد متحابان فوقه ، تملكتهما نشوة الوصال طوال حياتهما ، تلك خصائصه . رأيت وصاحبي آثار أقدام صاعدة وهابطة لمن حاولوا قبلنا .. تُرى هل كانوا يأملون مثلما نأمل الآن بلوغ قمته ؟ كيف كانوا يفكرون ؟ ما الذى دار فى عقولهم لحظتها ؟ وما الذى جعلهم يضلون فى مسالكه ؟ هل أتاهم هادم اللذات لحظة بلوغ ذروته ؟ أم هى إحدى خصائصه ، ضياع عشاقه فى مناهته ، الاكتفاء فقط بالطواف حوله ، تلمس دروبه ومسالكه دون ولوجه ، أم أن النية لم تكن خالصة له وحده ؟

كنا نصعد فوق مدقات حجرية صلبة نحتت من جسمه تيسرة على من قصد اعتلاء متنه ، ربما كانت هذه إحدى حيله أيضاً ، فقد يظن السالك سهولة المرتقى وهو لا يعلم أنه ما يبلغ بعض اجروميته إلا بشق الأنفس . يجيئه القاصدون من شتى بقاع المعمورة لا لشىء إلا لتسجيل أسمائهم على حجارة قمته ، يقولون هو باق حتى قيام الساعة ، أما نحن ، فإلى فناء، من تضعضع وانمحق منهم فى رحلة حجهم إليه أكثر ممن فازوا بالنجاة ، ومن دبوا على مدقاته تشوفاً لبلوغ قمته قلة نادرة ، أما من أفلت من الدوران فى مجرته وتسنم رأسه ، فهو حى ليوم يبعثون ، هذا ما نمى إلى علمى وجرت به المقادير .

روى أن ذى القرنين أراد ختم حياته بتسلقه والدعاء من فوقه ، فأخذ جيشه وخيرة قواده ممن ملكوا مشارق الأرض ومغاربها ، وفى تلك الرحلة اصطحبه الخضر ، أمل الاثنان فى ارتقائه ، قيل إن الرحلة استغرقت سنة

كاملة ، أما الاسكندر ، فقد انجذب إلى فلكه فضل ، بينما الخضر تحرر من جاذبيته فتجاوز مجرته ووصل إلى ما لم يصل إليه أحد قبله فدامت له الحياة.

اسمه جبل أبى الهواء ، من أين أتت تلك التسمية ؟ لا أحد يعلم ، هل لأن قمته طاعنة فى السحاب ؟ أم لأن هواءه لا نظير له ، هكذا جاء فى الأثر ، قيل هو شديد النقاء لا يمكن مقارنته بهواء آخر ، نسماته محملة برائحة ما غامضة تبعث فى النفس جيشاناً وتحض على الحنين لأزمنة مرت وآماد قضيت ، هل كانت تلك رائحة رفات أمراء الفراعين المدفونين ببطنه ، لماذا احتموا به فى نومتهم الأبدية ، عند منتصف الجبل ، تختفى معالم المدق الحجرى ، فلا توجد طرق معبدة مثلما كانت فى البداية ، إنما مجرد حجارة مسنونة لها حواف هشة ، من تعلق بها هوى إلى السفح وعدم نفسه ، من أين سلك السالكون إذن ؟ نويت وصاحبى الدوران حوله دورة كاملة ، ربما اهتدينا إلى طريق على الجانب الآخر منه ، أو عثرنا على ممر مخفى عن الأنظار ، كان هذا هو أملنا الوحيد ، وكنا على وشك إكمال دورة حين فوجئنا به أمامنا ، كان ممراً ضيقاً يتسع لشخص واحد بالكاد ، تقدمت صاحبى ، والممر يلف بنا الجبل لفاً حتى ظننا ألا نهاية لطوافنا المستمر إلى أن أخذ يتسع فرأينا نفسينا فى خلاء .

كنا عند السفح مرة أخرى ، وأخذنا نتطلع إلى الجسم العملاق بدهشة ، لقد طردنا ، فكيف تم خداعنا بسهولة ؟ كيف لم يفطن أحدنا لذلك الشرك؟ الممر الذى أفضى بنا إلى السفح لم يبد عليه ذلك ، بل كنا نظن طوال الوقت أننا صاعدان ، فهل كان ثمة ممرات أخرى ؟

لقد بدأ يمارس حيله وأساليبه

بدأنا الصعود مرة ثانية على حذر من خداع قد يحدث ، وصلنا إلى النقطة التى نزلنا منها ، وللعجب ، لم يكن ما رأيناه ممراً واحداً ، بل كان هناك آخر بجانبه موازياً له ، لكنه كان أكثر ضيقاً ، نظرت لصاحبى بفرح ، فها هو يا أخى الممر الصحيح ، بدأ يدور بنا حول الجبل دورات كاملة تتركنا عند السفح مرة أخرى . صاحبى أصابه نصب وإعياء ويأس ، بينما العناد استبد بى ، أشار لى بالرجوع ، فلا فائدة ترجى ولسنا من الموعودين ، أسرنا فى جاذبيته وقد ينقضى العمر ونحن ندور فى فلكه ، تماماً مثلما حدث لآخرين على طول الزمان ممن طمعوا فى اعتلاء متنه ، ووحده يعلم أين هم الآن ، تقول المدونات القديمة إن مسالكه كانت لحوداً لمئات وألوف أرادوا المحاولة ، امتحان إخلاصهم فى عشقه ، ملوك وسلاطين وأبطال انقطع ذكرهم هنا ، أما من نجوا فهم قلة ، وتفصيل ذلك سوف يأتى فى حينه .. ما الذى كان بوسعنا فعله سوى إعادة المحاولة رغم خيبة أمل كانت مرسومة على وجه صاحبى ، أما أنا ، فكنت على يقين من نجاحى ، من أين أتانى يقينى هذا ؟ ربما ما حدث لى خلال الأيام الفائتة هوالسبب ، ففى ثلاثين ليلة تكرر حلم واحد أكثر من خمسة وعشرين مرة ، يجيئنى على هيئة هاتف أسمع صوته ولا أرى شخصه يهتف : اذهب إلى القبة واحفر هناك ، فسوف تجد ما تبحث عنه . ما الذى كنت أبحث عنه ؟ لا أدرى ، تركت الأمر فترة وأخذته بلا مبالاة ، ففى يقينى أن أحلامى لا تتحقق ورؤاى غير صادقة ، لكن مع تكرار مجىء الهاتف بدأت انتباهتى ، وبدأت رحلة بحث مضنية فى المدونات القديمة عن تلك القبة التى أراد لى الهاتف

الذهاب إليها ، أكثر المدونات لا تذكرها ، أو ربما كانت تتحاشى ذكرها ، وأغلب ما عثرت عليه مجرد إشارات لوجودها ، من ذلك مثلاً ما ذكره المقريزى فى خططه إذ يقول عنها : وكانت من أحسن متنزهات الخلفاء الفاطميين قبة الواء ، وهى مستشرف بهيج بديع فيما بين التاج والخمس وجوه ، يحيط بها عدة بساتين لكل بستان منها اسم ، وعند سفح القبة فرش معدة فى الشتاء والصيف ويركب إليها الخليفة فى أيام الركوبات يتأملها من السفح ولا يجرؤ من الدنو خوفاً من العطب . عشت مع القبة فى شذرات المدونات القديمة . والشوق كان يحرقنى لرؤيتها عن قرب ، لكنها تبعد عنى مئات الكيلو مترات ، والرحلة مكلفة ، لذا فقد استبد اليأس واضمحل الأمل مع انقطاع الهاتف عدة ليال ، إلى أن حدث ما يلى : جاءنى الهاتف فى تلك الليلة ، وكرر كلامه على مسمعى ثلاث مرات متتالية ، وكانت تلك مرّته الأولى التى يفعل ذلك . وفى الصباح ، جاءتنى دعوة لزيارة مدينة القبة ، لحظتها أدركت أنى موعود بها ، سافرت وصاحبى الذى جاءته الدعوة هو أيضاً بالطائرة ، كان حضوراً لمؤتمر للثقافة ، لكنى همست لصاحبى بما فى نيتى ، لم أخبره بأمر الهاتف ، لكنه تشوق مثلى للزيارة ، للرؤية عن قرب . واصلت صعودى للمرة الثالثة ، خلفى صاحبى يقدم رجلاً ويؤخر أخرى متثاقلاً فى خطوه منشغلاً بخاطره عما نحن فيه ، بينما نشاطى الزائد وإقدامى بلا كلل يغريه بالتساؤل ، حتى وصلنا إلى نقطة العودة ، أمامنا طريقان لا ثالث لهما ، والطريقان يفضيان إلى السفح ، وقد جربنا الغوص فيهما ، ولا بد من طريق ثالثة ، فأين هى إذن ؟ أخذنا نتلفت حولنا ، وانشغلنا حتى لم نلحظ الأرض وهى تنشق ، ولم نلحظ أنه خرج

منها ووقف خلفنا صامتاً ، لكنا تنبهنا فجأة فارتجفنا رعباً ، من أين أتى هذا الرجل ؟ كان طويلاً وضامراً ، يرتدى جلباباً مخططاً بخطوط طولية زرقاء يصل إلى تحت ركبتيه بالكاد . عيناه رماديتان وشعر رأسه كان مصفراً خشناً وناتئاً كنبات برى . أشار لنا فتبعناه ، بينما قدماه الضخمتان العاريتان ترتطمان بصخور الجبل ، نظرنا إلى قدميه بدهشة من لم ير مثلهما من قبل، سرنا خلفه مدة ساعة ، مر بنا على طرق لم نرها قبلاً ، هو وحده كان يعرفها ، إلى أن وقف بنا أمام بوابة حديدية صغيرة وغائرة فى صخرة عملاقة ، أخرج من سيالته حلقة مفاتيح اختار منها واحداً وضعه فى قفل ضخم فانفتح ، أشار لنا بالدخول فدخلنا ووقف هو بالخارج . واجهتنا عتمة أخذت تتلاشى ليحل محلها ضوءٌ كابىٌ مضببٌ سرعان ما تعودنا عليه... كانت هناك لوحة جدارية عملاقة منحوته فى الصخور ، ما زالت ألوانها حية نابضة ، كان الأمير الشاب قد خرج الآن فى رحلة صيد هو وولده الوحيد ، وكان الغزال واقفاً يسترق السمع متأهباً للفرار من لحظة قنص قادمة ، بينما الأسد رابض يرمق ضحيته فى صبر ، الأمير يجرى وراء الغزال هو ومن معه ناسياً ولده الذى يلتهمه الأسد الآن ، كان الأمير راجعاً محطم القلب وبين يديه ما تبقى من ولده . الأمير يرثى ولده ، هنا دفن الابن والأب . المكان يفح بجلال وسكون الموت . فى الركن المقابل ظهر موضع القرابين التى كانت تقدم لأوزوريس ، الإله يظهر واقفاً يحمل فى يده الميزان يزن به قلب الميت .. انتهينا من المشاهدة فخرجنا . كان جالساً واضعاً رأسه بين ركبتيه ، لما أحس بنا انتتر واقفاً فاغلق الباب ومشى أمامنا، دار بنا حول الجبل دورة كاملة قبل وقوفه أمام مقبرة أخرى . . واجهتنا

نفس العتمة والتى تتحول بعد لحظات إلى ضوء هادئ شفيف . هذا الأمير مات شهيداً فى معركة حربية ، وها هو يجتاز العالم الآخر دون حساب تحف به الهة الرحمة .. كان صاحبى يفكر فيما أفكر فيه الآن . فالشبه واضح بين ما نراه، والحارس الواقف بالخارج لا تخطئه العين ، نفس الوجه الطويل الضامر ، عظام الوجنتين النائئة ، طول الجسد السامق ، العينان الغائرتان الواسعتان لونهما رمادى مغبر . تساءل صاحبى هامساً : أيكونوا قد اختاروا واحداً منهم للحراسة ؟ ما لاحظه صاحبى كان صادقاً ، وأنا لى وقفة مع حراس المقابر ، ولن أستمر فى السياق قبل أن أفضفض وأبعبع بما فى نفسى ، وهى فرصة جاء وقتها طالما صاحبى فتح الباب ، فاستمعوا لى وأنصتوا .

حراس المقابر

عرفت أحدهم فى مطلع صباى مع بداية فقد أول أحبتى ، من هى أحق الناس بحسن صحابتى ، حكايته معروفة ومدونة عندى ، ومن شاء الاستزادة فليرجع إلى توهماتى ، أما الآن فألخص وأشفّى . كان الرجل عبارة عن عظم فى قفة ، لكنه من ا لرعيل الأول ، حازق فى صنعته ، يعرف الكثير عن أسرار التلحيد ، رأيته لحظة دفن أمى ، جاء خصيصاً إكراماً لها رغم تركه الصنعة منذ زمن ، كان الناس يسندونه حتى المقبرة . شعر رأسه أشعث أغبر ، عيناه ترابيتان ولونه مخطوف ، دخل المقبرة يزحف على أربع وخرج يرمح كما الرهوان، كيف حدث له ذلك ؟ ما الذى رآه لحظة الدفن؟ كيف تمت معجزة إعادة شبابه ؟ تلك حكاية أخرى ليس هذا أوانها .

آخر رأيته لحظة دفن عزيز فكدت أفارق ، له نفس الملامح ، وعلى الرغم من صغر سنه ، إلا أنه ينتمى إلى زبائنه ، صموت مثلهم ، كأن الدم هرب من عروقه فجعل لونه مخطوفاً ونظراته شاردة مخضوضة جعلته منتمياً ومتوحداً مع عالمه . ورأيت واحدة تجهز الكفن وهى تدندن بأغنية فكأن لا فرق عندها بين ثوب العرس وثوب الزفة الأخيرة .

كان الوقت على وشك الغروب لما انتهينا من سعينا فى وداع رفات الأجداد الوداع الأخير ، وظل الرجل يتقدمنا صامتاً إلى أن جاء عند منعطف فى الجبل وتوقف ، أشار لى بالتقدم ومشى خلفى ساتراً بينى وبين صاحبى ، تقدمت دون أن أعرف إلى أين يقودنى ، لكننى كنت مطمئناً لوجوده وصاحبى خلفى ، مشيت مدة ساعة دون أن ألتفت ورائى . وكنت أسمع وقع أقدامهما على الممر الدائرى الضيق الذى بدا بلا نهاية ، ووجدت نفسى فجأة داخل قبة لها جهات أربع ، نظرت خلفى فكاد يغشى علىّ ، كنت أقف فوق جرف منحدر داخل القبة ، ولم يكن هناك غيرى ، تلفت فى كل الاتجاهات بحثاً عن صاحبى والحارس فلم أجدهما ، نظرت تحتى بحذر فرأيت نقطة سوداء تتحرك أسفل الجبل، ظللت أتابعها حتى تلاشت، لحظتها أدركت أننى بدأت أول مسعاى .



2

قبة فاطمية مدورة

ما الذى جرى لى يا ربى

كنت وحدى، متوحداً بذاتى، مسكوناً بسكون ساكن يحيطنى إحاطة العين بالننى، وسماء أرنو إليها من جهات أربع داخل قبة فاطمية مدورة مشيدة فوق جرف منحدر، صخرة عملاقة فى نهاية بزبوز الجبل الشاهق، بدت القبة محدوفة فى فضاء بلا جاذبية، كيف خرجت عن مجرتها الجبلية؟ كيف قاومت فناءها عبر أزمنة مرّت ؟ من أين جاء رسوخها ويقين بقائها ؟

تلك حكاية أخرى ليس هذا أوانها .

رحلتى إلى القبة أجهدتنى ، من لحظة عروجى وصاحبى إلى الجبل ، ضياعنا فى متاهته ، لقاءنا بالحارس ، اختيار الجبل لى لأواصل الدنو ، بينما صاحبى عاد من حيث بدأ . هل كان بخاطره أن يحدث له ما حدث ؟ هل فكر لحظة بالفشل فى الاعتلاء وبلوغ الذروة ؟ كلا والله ، إنما هى الاعيب جبل لم نعرفه جيداً ، لم نقدره حق قدره ، وما عاملناه معاملة الند ، ورغم ذلك خصنى دون صاحبى ، أباح لى بسره ، أظهر وفضفض بطرقه الخفية كى أصل قبته ، أعطاها اسمه : قبة أبى الهواء . فى زمنى لم يعتل القبة غيرى ، يحدث ذلك كل مدة . كثيرون اجتهدوا فى تحديد زمنها ، أحدهم أجزم بحدوث انبثاقها فى نهاية أفول كل قرن ، تحديداً فى الساعة الأولى من فجر اليوم الأول من السنة الأولى . توصل إلى ذلك بعد دراسة فى علوم الفلك استغرقت عمره كله ، الدراسة مدونة فى كتابه الوحيد والذى أسماه «تنوير الحلك فى أخبار الفلك» لمن شاء الرجوع إليها . باحث آخر

حـدّد عدد السنين حـسب التقـويم القـديم ، فى أزمنة لاحقـة ظهرت عـدة تقـاويم ، منها الـقبطى ، والميـلادى ، والإسـلامى . ربط أحدهـم بين القبـة والنيل مستخدماً التقويم الفـرعونى ، قال إن الانبثاق وظهور القبة على الملأ يناسب تقـويم النيل ، ذكـر ذلك فى كتـابه «إتحـاف الأحبـة بمعـرفة أسـرار وفضـائل القبة» الكتـاب مجهول التـاريخ والمؤلف ، وهناك من يشكك فى وجوده أصـلاً ، لكنه مـذكور فى كـتب الفهـارس إما بمقـتطف ، أو بعنوانه فقط، جاء فى تصنيفه أنه من كتب الحكايات والأساطير ، أخباره مروية عن سمع لا عـن مشاهدة ، إذ يقـول ص ٣ من مقـتطف أدرجه ابن الشـبلى فى كتابه المـسمى «ترويض الأنفاس بما تداول من كلام الناس» مـا نصه «لم ير القبـة المدورة التى بجهة النيل مـخلوق قط ، لا فى زماننا ، ولا فى زمن من سبقـونا من الدول والأمم والخـلائق ، إنما هى أحاديث متـواترة ، وأخبـار متـداولة على السنة الناس ، فقد حـدثنى سعيد عن والده إنه قـال : حدثنى رجل ممن اشتغلوا بعمارة القاهرة فى زمن الخليـفة المعز الفاطمى فقال : كنا انتهـينا من تخطيط مـدينة القاهرة فـجاءت وسطاً بين القطائع والفـسطاط ، فلما أذن لنا بالرحـيل ، توجهنا إلى الجنوب وتوغلنا حـتى وصلنا عند جبل يُكنى بأبى الهـواء على الجهة الغـربية من النيل ، فـجعلنا نخـوض فى النهر حـتى تخطيناه إلى ضـفتـه الأخـرى ، وجلسنا تحت سفـح الجبل للراحـة ، وأخـذت أنا فى تأمل الجبـل وما حـباه الله مـن سعـة ورسوخ ، وسـرحت عيناى إلى قمته فوجدتهـا طاعنة فى السحاب ، وما ظهر منها شىء لعينى ، ومن شدة تـعب الطريق والسفـر رحنا جمـيعاً فى غـفوة ، وبينمـا أغط فى نومى، انتبهت فجأة وأنا بين الصـحو والمنام ، وإذا بى أرى القمة التى كانت

غير مرئية ، قد دنت وتدنت وظهر فى وسطها صفة بياض على قدر القبة المدورة المعمولة من السحاب الأبيض المطعم بزرقة ، وتحددت أركانها وصفاتها ومداخلها ومخارجها ، وقد انتبه الجميع بعدى ورأوا تلك المشاهد العجيبة ، وكنت أول من شاف ونظر ورأى ورنا وأبصر وحدق فتحقق ، وكان هذا سبباً فى عمارتها ، فسبحان مسبب الأسباب .

فى وصف القبة

أخذت ألملم نفسى من نثار يلفنى ، وبحذر من يخشى التلف ، جست بقدمى داخل القبة التى بدت وكأنها تحيا زمنها الخاص منذ ظهورها الثانى أمام أعين بناة القاهرة الفاطمية . لم تختف بعد ذلك ، بل ظلت راسخة فى المشاهدة ، ثابتة فى السطوع ، تُلمح من شىء جهات المعمورة كقبة مدورة ، ليس إلا ، أما كيف يراها رائيها ، وفى أى صورة تتجلى فى العيون ، كيف تحفظ أسرارها وكينونتها عبر الأزمنة ؟ كيف تتبدى لعين ناظرها كل حسب نيته وعلى قدر مظنته ؟ كيف أصبحت القبة رمزاً لطائفة لعبت دوراً خطيراً فى التاريخ الوسيط ؟ كيف أعلن أحد زعماء الطائفة من فوق هذه القبة عن قيام القيامة ، وعن دخوله واتباعه الجنة ؟

فتلك حكاية أخرى ليس هذا وقتها .

نرجع إلى ما كنا فيه من السياق ، بعد الصلاة على صاحب البردة والبراق :

إنما الأعمال بالنيات ، ولكل امرئ ما نوى ، والقبة من قصدها بنية الفرجة ، مشاهدة ما لم يشاهد قبلاً ، فإنه لن ينال منها إلا ما جاء من أجله ،

وسوف تظهر له كما هى ، بناء مدور مطلى بالجير الأخضر المتسخ ، كأنه ضريح ولى مفتوح من أربع جهات ، قد يعرض عنها ويزور ذاهباً من حيث جاء دون انتفاع ، لا ينوبه سوى نصب وإعياء المسعى ، أما من عرف الجوهر والسر وما أخفى عن الأعين ، فلا بد له من المواصلة من أجل الوصول ، ربما فتحت له كنوزها ، ربما باحث بسرها وإصابته بنفحة ، كما أصابت صاحب حظ ذات صباح فى تجليها الأول ، وهى حكاية روتها العامة وذكرها ابن الشبلى فى المصدر السابق ، إذ يقول ص ٨ وما تلاها :

حدثنا أحمد بن أباديس فقال : خرجت من موطنى ومرتع نشأتى قاصداً زيارة القبة ، وذلك بعد أن قرأت وسمعت عنها ما جعلنى مؤرقاً لا أعرف ليلاً من نهار ، فلما عزمت على الرحلة ، تودعت من أهلى وعيالى ، وكانت لهم معى وقفة صعبة ، فقد أخذوا يبكون ويندبون ويقولون لا تتركنا يا والدنا لأنك تطلب المحال، وما تزمع الرحيل إليه إن هو إلا تهاويل خيال ، فاقنع بوجودك وسطنا ولا تفجعنا فيك فليس لنا غيرك . وصاروا يقولون لى مثل هذا الكلام ، وأنا جعلت أذناً من طين وأخرى من عجين وأقول دعكم من هذا اللغو فهذا لابد منه . فلما تحققوا من رحيلى ، أخذوا يعزون بعضهم فى فقدى وأنا ما زلت بينهم ؛ فتعجبت وصرت أضرب كفاً بكف ، وكيف اعتبرونى مت وأنا بعد ما زلت بينهم ، ثم إننى تودعت منهم وهم على هذه الحالة من الصياح والندب والعويل ، وخرجت قاصداً أرض القبة ، وقد أصبحت ولا غاية لى فى هذه الدنيا سوى الدنو منها والرنو إليها ، ذكر اسمى تحت سمائها ، ولعلى أشاهد ما لم يعرفه أحد قبلى ، فطلبت البر الأقفر ، وأخذت أنهب الطريق نهباً وأطوى الأرض طياً مدة

ستة أيام بلياليها حتى أشرفت فى الليلة السابعة على جبل يُكنى بأبى الهواء، وله قمة طاعنة فى السحاب ، ولكنى لم أر تلك التى جئت محدوفاً متشحتفاً إليها تاركاً حالى ومالى وعيالى .. فوقفت قبالة الجبل وقلت كلمة لا يخجل قائلها «لا حول ولا قوة إلا بالله» ثم إن دموعى ساحت على خدى ولسان حالى يردد هذين البيتين :

أرى آثارهم فأذوب شوقاً
واسكب فى مواطنهم دموعى
واسأل من بفرقتهم بلانى
يمن علىَّ منهم بالسطوع

ثم إننى أخذت فى تسلق الجبل ، وإذ بحارس عملاق كأنه من بقايا قوم عاد يعترض طريقى ، فلم يسألنى من أين أنا وإلى أين أمضى ، بل إنه أشار لى أن أتبعه وتقدمنى عبر دروب ومسالك فى الجبل لا أحد يعرفها غيره ، حتى انتهى بى إلى مكان فى الجبل فتأخر عنى وأشار لى أن أتقدم وحدى ، وفهمت أن مقامه ينتهى إلى هنا ، فلما قال ذلك تركنى واختفى كأنه مثل فص ملح وذاب ، المهم أننى تقدمت صاعداً وسالكاً حتى وصلت إلى نقطة فى الجبل ليس بعدها سوى الهاوية ، وإذ بى أجد نفسى واقفاً على جرف كأنه صخرة محدوفة ، والنيل من تحتى كأجمل ما يكون ، وبينما أنا كذلك أتأمل ما حولى ، أخذت الظلمة تلف الكون ، فخشيت خطر الرجوع ، فقد تزل قدمى ، وينهد أساسى وفرعى ، فقلت أبيت ها هنا ليلتى، وفى الصباح يفعل الله ما يشاء . جلست وقد هبت ريح الشمال بنسائم طرية ، فأخذتنى غفوة لا أدرى مدتها ، وإذ بى أهب من رقدتى

على صوت كالرعد إذا قصف ، ففركت عينى وانتبهت على شىء أخذ يظهر أمامى ويتكور ويحوطنى إحاطة السواد بالبياض ، وانعقدت أنواره فكأنها الشمس وقت ظهورها ، حتى استبانت ملامحه عن قبة كاملة الاستدارة عالية البنيان ولها أربعة أبواب ، دخلت من الباب الأول فواجهتنى قاعة وفى صدرها أربعة لواوين ، على كل ليوان شبكة من اللؤلؤ الأبيض الرطب المنظوم بسلوك الذهب والفضة ، وأرض القاعة مفروشة بالزعفران الجنوى الممزوج بالعنبر الكنوزى ، ووجدت أسرّة معمولة من خشب الساج الهندى المصفح برقائق الذهب الخالص ، وعلى كل ليوان شخص من النحاس الأصفر يكاد ينطق من دقة صنعته ، كذلك على الأسرّة يوجد بشر على صفة الراقد والجالس والواقف ، ووجدت مكتوباً فى صدر القاعة هذه السطور :

يا متصلاً إلى هذا المكان
ومطلعاً على هذا البنيان
اعلم أن هؤلاء هم ملوك
مصر المحروسة من الملك
الديان على مدار
الأزمان من بداية
الخلق إلى أن
يرث الله
الأرض ومن
عليها

ثم ولجت من الباب الثانى فوجدته مثل الأول مفروشاً بالأبسطة الفخمة، ولكن من دون تصاوير لأشخاص مثل القاعة الأولى، وفى صدر القاعة، رأيت كتاباً عظيماً فاخراً موضوعاً على سنادة من خشب الساج مرصعة بالدر والجوهر النفيس، والكتاب مفتوح على صفحة العنوان فقرأت :

يا متصلاً إلى هذا المكان ومطلعاً على هذا
العنوان ، فاعلم أنه كتاب الأزمنة
والأنواء المصرية ، وفى شمسها
وقمرها ونجمها وليلها ونهارها
وساعاتها وتغير فصول
سنينها وهبوب رياحها
وسقوط أمطارها وتقلب
مزاج أرضها من
وقت أدم عليه
السلام حتى
قيـــام
الساعة

وكان الباب الثالث مثل الأول والثانى ملآناً بالمفروشات والطنافس ، وفى الصدر رأيت كتاباً أعظم من السابق ، لا شىء يضاهى مهابته وبهائه ، وحواف ذلك الكتاب من الذهب الإبريسم ، وسطوره مكتوبة بماء الذهب على أديم الطير ، ووجدت مكتوباً على صفحة العنوان :

إن كنـــت جئـت إلــى هنــا لتــرانــى

فتأدب فى حضرتى ، أنا كتاب النيل

صنعة رب العباد لخير هذه البلاد

من وقت منشأه إلى منتهاه

وفيه أول ساعة جريانه

ومن أين ينبع وإلى

أين يصب وجميع

أحواله إلى أن

يـرث اللـــه

الأرض ومن

عليها

قال أحمد بن أباديس : ثم إننى تقدمت من الكتاب ومددت يدى أنتزعه من مكانه ، وقلت تلـك هى الغنيـمة الكبـرى التى من حـازها ملك البـلاد والعباد ، لأنى أعلم أن هذه البلاد سر بقائها فى هذا النهر المبارك ، فهو ينبع من نهر فى الجنة ، فمـددت يدى وقبضت عليه ، فلا أدرى إلا وشيـئاً خرج من الكتـاب ولطشنى فى وجهى لـطشة هجـجت صوابى وعـقلى فوقـعت مغشياً على ، ولم أعد أعـرف هل أنا فى السماء أم فى الأرض مدة ساعة ، فلما أفقت وملكت صوابى ، أعدت المحاولة فحدث مثلما حدث فى الأول - وليس فى الإعادة إفادة - وحدثتنى نفسى الأمارة بالسوء بتكرار المحاولة، فسمعت صوتاً لا أرى شخـصه يأتى من ناحية الكتاب يقول : تأدب يا هذا واقنع بما وصلت إليـه فلست أهلاً له . فـعلمت أن هذا الكتاب ليس لأحـد

سلطاناً عليه ، وأن عليه رصداً لحمايته ، فـهو ذخيرة هذه البلاد ، فإن فقد أو تلف ضاعت بأرضها وناسها ودوابها ثم إننى تركته آسفاً ودخلت من الباب الرابع فرأيت سـبعة أشـخاص يتصـدرون القاعة ، وهم على صـفة الواقف والجـالس ، وهؤلاء الأشخـاص من النحـاس الأصفـر ، ورأيت بين هؤلاء السبعة تصويرة على هيئة شكلى ورسمى ، فأخذت أنظر إلى نفسى وأنا فى عجب واندهاش لتطابق ملامحى على ما أنا عليه الآن ، وكنت السادس فى ترتيب الأشـخـاص ، ويوجد سـابع يقف وحـيداً بعـيـداً ، وهؤلاء هم من وصلوا إلى هذا المكان ورأوا مـا رأيت ، عـدا الأخيـر والذى يظهر فى آخـر الزمان ، وتكون صفته على ما هى عليه صفة التمثال .



3

الطائفة

لحظة فكرت فى صعود القبة ، كانت غايتى ومنتهى أملى ، نقش اسمى على حوافها مثلما فعل غيرى ، أما وقد اعتليت الجبل ، أما وقد فتح لى دروبه ومسالكه ودهاليزه ، أما وقد اختارنى دون صاحبى للعروج نحو القبة، أما وقد رأيتها رؤية عين ، فقد تبدلت أحوالى ، وما كان هدفاً وغاية أصبح ثانوياً ، على رغم أن تحققه كان محالاً ، وما انتظارى وطول أملى إلا لسبب لم أكن أعلمه ، فما الغيب إلا من صنع ربى ورب كل شىء ، عالم الغيب والشهادة ، فسبحان الذى هدانى للطلوع ، وسبحان الذى سخّر لى جبلاً عملاقاً ما كنت بالغه إلا بإذنه، وسبحانه سبحانه الذى جعل هذه القبة محط أفئدة تهوى إليها من كل فجاج المعمورة، لا لشىء إلا للرؤية ، لتخليد أسماء زائلة وكينونات سابحة دوماً صوب الزوال والعدم ، وكأن الموت ليس بحائل عن نشوان الصيرورة ، وقد سأل سائل ذات يوم ابن عبد الجواد - رحمة الله الواسعة عليه حياً وميتاً - عن الموت ، فاستحضر من كلام الشيخ الأكبر محى الدين أبى عبد الله بن العربى الحاتمى المتوفى سنة ٦٣٨ هجرية ، رحمه الله حين قال فى المعنى : الموت سهم صوّب إليك لحظة مولدك ، وحياتك بقدر وصول السهم إليك . وقد فصّلنا ذلك فى رسالتنا فى الموت والتى أطلقنا عليها «كتاب التوهمات» وفيها ذكر الجنة ونعيمها والنار ذات الشرار وعذاب القبر وفتنة الشجاع الأقرع والمسيخ الدجال وأحوال يوم القيامة ، وليس فى الإعادة إفادة .

نرجع إلى ما كنا فيه من الطلب، ونصلى ونسلم على النبى كريم الحسب، فإننى داخل القبة، أخذت أحملق فى تلك الاسماء المدونة على السقف والجدران، وصرت أقلب وجهى بين هذا الاسم وذاك، عمور

منقضية ، تواريخ تنتمى إلى أزمنة غابرة، أرواح وأجساد بليت إلاّ من أسمائها المحفورة على جدران القبة، وقريباً قرأت عن علماء استطاعوا تسجيل أصوات البشر فى الهواء منذ سيدنا أبى البشر وحتى الآن، فطلبت من ربى أن أحيا حياة ثلاث نسور فقط، فأسمع أصوات أمى وأبى وأحبتى الذين فارقوا، ما علينا، وبينما أنا كذلك، ومن شدة التعب تملكتنى لحيظات من وسن، فرأيت فيما يرى النائم ، طائراً عملاقاً حط فى وسط القبة ، وأخذ يتلفت يميناً وشمالاً وخلفاً وأماماً، ثم إنه اتجه ناحيتى فأزاحنى بمنقاره حتى لصقنى بالجدار، ثم رجع مرة أخرى إلى المكان الذى أزاحنى منه، وصار يحفر بمنقاره مدة ساعة، وإذ بهاتف أسمع صوته ولا أرى شخصه يهتف بى : أكمل الحفر ها هنا .. قالها ثلاثاً وسكت، فانتبهت من رقدتى وأخذت أتلفت حولى فلم أجد للطائر أثراً ، قلت إن هى إلاّ هلوسات . وحانت منى التفاتة إلى تحت قدمى فلمحت حفرة كتلك التى حفرها طائر الحلم، فتعجبت وركعت وأخذت أكمل الحفر وأنا لا أعرف ما الذى أحفر عليه، إلى أن اصطدمت يدى بحلقة من نحاس أصفر مجنزر عالجتها حتى لانت فى يدى وأبانت عن سرداب، ولجت فيه وأنا أتحسس بيدى على الجدران من شدة العتمة، وصرت أتقدم وأنا لا أدرى أصاعد أم هابط أنا ؟ وإلام يفضى هذا السرداب المظلم المليء بالوطاوط والأفاعى، فكنت أسمع الصراخ والفحيح فأنكمش فى بعضى رعباً، ومرت ساعة وكأنى ما برحت مكانى ، إلى أن لمحت بصيص ضوء فرجع لى أملى وتقدمت نحوه، بينما قدمى تتعثران بأشياء تتكسر دون أن أعرف ما هى، حتى رأيت قاعة كبيرة فى نهاية السرداب تكاد تسع جيشاً، كانت القاعة مضاءة بشعاع الشمس

منقضية ، تواريخ تنتمى إلى أزمنة غابرة، أرواح وأجساد بليت إلاّ من أسمائها المحفورة على جدران القبة، وقريباً قرأت عن علماء استطاعوا تسجيل أصوات البشر فى الهواء منذ سيدنا أبى البشر وحتى الآن، فطلبت من ربى أن أحيا حياة ثلاث نسور فقط، فأسمع أصوات أمى وأبى وأحبتى الذين فارقوا، ما علينا، وبينما أنا كذلك، ومن شدة التعب تملكتنى لحيظات من وسن، فرأيت فيما يرى النائم ، طائراً عملاقاً حط فى وسط القبة ، وأخذ يتلفت يميناً وشمالاً وخلفاً وأماماً، ثم إنه اتجه ناحيتى فأزاحنى بمنقاره حتى لصقنى بالجدار، ثم رجع مرة أخرى إلى المكان الذى أزاحنى منه، وصار يحفر بمنقاره مدة ساعة، وإذ بهاتف أسمع صوته ولا أرى شخصه يهتف بى : أكمل الحفر ها هنا .. قالها ثلاثاً وسكت، فانتبهت من رقدتى وأخذت أتلفت حولى فلم أجد للطائر أثراً ، قلت إن هى إلاّ هلوسات . وحانت منى التفاتة إلى تحت قدمى فلمحت حفرة كتلك التى حفرها طائر الحلم، فتعجبت وركعت وأخذت أكمل الحفر وأنا لا أعرف ما الذى أحفر عليه، إلى أن اصطدمت يدى بحلقة من نحاس أصفر مجنزر عالجتها حتى لانت فى يدى وأبانت عن سرداب، ولجت فيه وأنا أتحسس بيدى على الجدران من شدة العتمة، وصرت أتقدم وأنا لا أدرى أصاعد أم هابط أنا ؟ وإلام يفضى هذا السرداب المظلم الملىء بالوطاوط والأفاعى، فكنت أسمع الصراخ والفحيح فأنكمش فى بعضى رعباً، ومرت ساعة وكأنى ما برحت مكانى ، إلى أن لمحت بصيص ضوء فرجع لى أملى وتقدمت نحوه، بينما قدمى تتعثران بأشياء تتكسر دون أن أعرف ما هى، حتى رأيت قاعة كبيرة فى نهاية السرداب تكاد تسع جيشاً، كانت القاعة مضاءة بشعاع الشمس

الداخل من فتحات سرية منحوتة فى صخور الجبل ، وفى الصدر ، رأيت هيكلاً عظمياً جالساً على مقعد عالٍ وحوله رجالٌ جالسون، فأصابتنى وحشة المكان ومشاهدة الهياكل برعشّة فى بدنى، وضربت كفاً بكف وأنا أقول كلمة لا يخجل قائلها : أشهد ولا أجحد بدين محمد النبى الأمجد . من هؤلاء القوم ؟ وكيف اجتمعوا فى هذا المكان ؟ وعلام كان هذا الاجتماع ؟ وكيف أتاهم أمر الله وهم عنه فى غفلة ؟ تشهد على ذلك التعابير المرسومة على وجوههم، بعضهم ما زالت ضحكته مرتسمة على وجهه ، بعضهم كان يتحدث ويشير بيده ، ملامح شتى، دهشة وتوجس، انتظار مجهول آت لا ريب، رنوّ إلى مقبل لا أحد يعلمه، كان كبيرهم الجالس على مقعده فى صدر القاعة متكئاً بكوعه على مسند الكرسى واضعاً ذقنه بين راحة يده شاخصاً ببصره إلى فضاء القاعة، على وجهه ملامح غامضة ، على الكرسى كان اسمه محفوراً بالخط الثلث المشكل : الخوند الأعظم، مَنْ دانت له كل الطوائف، سلطان القلاع والحصون . كانت هناك مائدة موضوعة أمامه من خشب الساج الهندى الأبنوسى مطعمة بالعاج وفصوص الجوهر، فى وسط المائدة صندوق من الذهب الابريسم صغير الحجم عليه قفل دقيق الصناعة أخذت أعالجه حتى انفتح فى يدى ، فتحت غطاء الصندوق فوجدته ملآناً بالأوراق، جست بيدى داخله علنى أجد شيئاً اخر فلم أجد ، ما الذى كنت أبحث عنه ؟ أغلقت الصندوق مرّة أخرى وحملته فى يدى وتركت القاعة آخذاً طريقى مرّة أخرى نحو القبة التى ما أن جلست فى وسطها حتى فتحت الصندوق واخذت أخرج ما به من أوراق .

هل كان عثورى على الأوراق صدفة ؟ أم انه كان مقدراً لى المجىء إلى هنا وحدى لينكشف أمامى كل ما خفى من أسرار ، أزمنة مرّت ، وحقب طُويتْ ، رجال ولُدتْ ونمت وعمّرت وخططّت ودبّرت واندثرت كأن لم تكن تسعى على ظهر بسيطة قط ، فسبحان الحى الذى لا يموت ، مَنْ بيده الملك والملكوت وسبحان مَنْ صدق فى قوله : كل نفس ذائقة الموت ، ها هم سكان القبة يتجرعونه بغتة ، كيف جاءهم ؟ ما الذى كانوا يفعلونه لحظتها ؟ وعلام كان اجتماعهم ؟ ما الذى تفوهوا به وقتها ؟ آخر ما تحدًث به لسانهم ؟ ولماذا كان هذا العقاب الجماعى ؟ هذا ما يُخبِر به المخطوط الذى عثرت عليه ، أوراقه الصفراء الهائشة تدل على قدمه ، كتابته بعناية فائقة بخط النسخ المشكًل وحفظه فى صندوق الذهب ينبئ بجسامة محتواه، أسراره المخبأة فى صفحاته المائة من الحجم الكبير والمرقمة بالترقيم العربى من ١ إلى ١٠٠ ، سريته المطلقة أغفلت اسم كاتبه وناسخه ،عنوان المخطوط دُوّن فى أعلى صفحته الأولى عند منتصفها :

«مسالك الأحبة فى ممالك القبة»

فى الجهة المقابلة للعنوان من الناحية الشمال كتب : سرى للغاية - لايقربه إلاّ من عصم . ينقسم المخطوط إلى جزأين رئيسيين تندرج تحتهما عناوين كثيرة ، يبدأ الجزء الأول الذى يكوّن الصفحات من ١ إلى ٣٠ فى عرض تعاليم الطائفة وهو بعنوان : رسالة فى المعرفة الحقة .. موجهة من الخوند الأعظم عالم الملة ورئيس الطائفة إلى أتباعه فى كل زمان ومكان

على هيئة سؤال وجواب توضح للمريد كل ما يمكن معرفته والطريق الذى يجب عليه أن يسلكه للانخراط فى سلك الطائفة ، ونبدأ بسؤال عن كيف ومتى ظهر مولانا القدير ؟ فيقول الخوند إنه ظهر فى السنة الأربعمائة من الهجرة النبوية ، وقد ذكر حينئذ بأنه من نسل محمد ليخفى ألوهيته لأن ديانته أهملت وقل عدد مَنْ يعبدونه ، وأنه ظهر تحديداً فى عام ٤٠٨ هـ وقد ظل ظاهراً طوال العام ثم اختفى فى عام ٤٠٩ لأنها كانت سنة مشئومة ، ثم عاد فظهر فى بداية عام ٤١٠ واستمر عام ٤١١ وأخيراً فى بداية عام ٤١٣ اختفى عن الأنظار ولن يعود إلا فى يوم الحساب ، وهو اليوم الذى يظهر فيه الخالق بوجه إنسان ويحكم العالم / بقوة السيف / ، أما متى يحدث ذلك فهو أمر غير معروف ولكن ستكون هناك علامات تنبئ عنه منها أن يرى الناس الملوك يتغيرون ، ولحظتها ، سوف يظهر بقوة السيف وينتزع منهم الحياة جميعاً ، وسوف يولدون بعد موتهم بأمر القويّ القدير الذى ظهر فى صورته البشرية عشر مرات تسمى محطات ، أما حمزة ، فقد ظهر سبع مرات فى القرون المنصرمة منذ آدم حتى النبى محمد ، وقد كان يُسمّى شاتنيل فى عصر آدم ، وفى زمن نوح كان يُدعى فيثاغورس ، وكان داود هو الاسم الذى لقب به فى زمن إبراهيم ، وفى أيام موسى سُمى شعيب ، وفى عصر عيسى سمى بالمسيح الحقيقى ، وكذلك بعازر ، ولأننا فى حاجة إلى الا نعرف على حقيقتنا ، فنحن ندخل فى زمرة أصحاب المذاهب الإسلامية ونعترف بالقرآن ، وحتى لا يُساء الظن تبنينا جميع الشعائر الإسلامية ، حتى شعائر الصلاة على الموتي، كل هذا فى ظاهر الأمر فقط حتى يظل الناس يجهلون حقيقتنا .

رسالة القيادة والدفاع

أنا أول مخلوقات الله ، وأنا أملك صوته وقوته ، وأملك العلم بأمره ، أنا البرج والبيت المشيد ، أنا سيد الموت والبعث ، أنا الذى سوف أنفخ فى الصور ، وأنا الرئيس العام للدين وسيد العفو ، مقيم العدالة وهادمها ، أنا ملك العالم ومحطم الشهادتين ، أنا النار التى تلتهم كل شىء .

الهدف من تلك المنشآت القائمة بمصر والتى يسمونها الأهرامات

لقد شيدها القوى القدير وهو يرمى بذلك إلى بلوغ هدف ملىء بالحكمة ، وهو أن يضع فيها الحجج والصكوك التى تناولتها يده المقدسة ، من جميع المخلوقات ويحفظها هناك ، إلى أن توضع فى مستقرها الأخير داخل القبة حتى تقوم الساعة ولابد من إخفائها لأنها تحوى أسرارنا ، ولا ينبغى أن نكشف للناس عن أشياء يتوقف عليها سلام النفوس وحياة العقول .

جف القلم ، وطويت الصحف ، وقضى الأمر

***

الطائفة

يتحدث المخطوط فى القسم الثانى منه ، والذى يبدأ من ص ١٣ حتى ص ١٠٠ عن طائفة الإسماعيلية ، تحديداً عن فرع من فروعها سمى بالحشاشين ، يبدأ بنقطة تحول هامة حدثت للطائفة ، ففى العام ٦٨٥ قام

شخص يدعى مختار من الكوفة ، بثورة باسم ابن على المعروف بمحمد بن الحنفية ، منادياً به الإمام الحقيقى والرئيس الشرعى للمسلمين ، وقد هزم مختار وقتل فى العام ٦٨٧ ، لكن حركته استمرت بعده ، وبعد موت محمد بن الحنفية نفسه ، قال أتباعه إن إمامته انتقلت إلى ابنه ، وادعى البعض أنه لم يمت ، إنما اختفى فى جبال رضوى بمكة ، وأنه سيعود للظهور عندما يشاء الله وينتصر على أعدائه ، ويلقب باسم المهدى .

أما نقطة التحول الثانية ، فقد حدثت بعد وفاة جعفر الصادق ، الإمام السادس فى العام ٧٦٥ ميلادية ، كان لجعفر ابن أكبر يدعى إسماعيل ، وقد حرم إسماعيل من خلافة أبيه فى الإمامة ، أخذها أخوه الأصغر موسى الكاظم باعتباره الإمام السابع ، استمر نسل موسى حتى الإمام الثانى عشر الذى اختفى حوالى عام ٨٧٣ وهو ما عرف بالإمام المهدى أو المنتظر ، وأتباعه هم الإثنى عشرية ، وتبعت جماعة أخرى إسماعيل ونسله عرفوا بالإسماعيلية وظلوا يعملون فى الخفاء حتى تكونت الطائفة .

وفى العام ٩٠٩ وصلوا إلى درجة من القوة دعت الإمام المستور إلى الظهور وإعلان نفسه خليفة فى شمال أفريقيا ويلقب بالمهدى ، وهكذا تكونت دولة جديدة عرفت باسم الفاطمية . وفى العام ٩٦٩ اقتحمت القوات الفاطمية وادى النيل ، وبالقرب من الفسطاط ، المقر القديم لحكومة عمرو بن العاص ، بنى الزعماء الجدد مدينة جديدة أسموها القاهرة لتكون عاصمة لدولتهم ، كما بنوا مسجداً جامعاً هو الأزهر ، وانتقل الخليفة المعز الفاطمى من تونس إلى مقره الجديد حيث حكم هو وخلفاؤه من بعده لمئتى سنة .

فى بناء القبة ووصفها وصفة عمارتها .

يقول المخطوط إنه فى تلك الفترة، تم بناء القبة، بعد توافق ظهورها الثانى مع ظهور الطائفة، يتحدث عن رجل جاء من ساسان، استدعاه أحد زعماء الطائفة، عرف بتخصصه الدقيق، صنعته التى عُرف بها هى بناء القباب، له مصنف شهير ما زال مخطوطاً، لكنه متداول، اسمه «كشف الحجاب فى صفة وعمارة القباب» قدِّر له أن يشتهر ويصبح مدرسة وطريقة سُميت فيما بعد بمدرسة العمارة الساسانية، نسبة إلى بلد الرجل الذى لم يُسمح له بتدوين خطط القبة فى كتابه حتى لا تقع فى أيدى العامة أو أحد من أعداء الطائفة ، بل إنه توفى بعد إتمام بناء القبة سبداء غير معروف. سرّ بناء القبة لا يعرفه إلا الرؤساء الكبار للطائفة ، يفرد له المخطوط صفحات تبدأ بالوصف الخارجى للقبة، أحجار البناء ومن أين جُلبت، كيفية عمل عقد القبة ، الطلاء المستخدم، الأبواب الأربعة المطلة على جهات الدنيا، رسم تخطيطى لمداخل ومخارج القبة ، الأساسات والدعائم ، الفتحات السرية المؤدية لسراديب وممرّات تحت البناء المقبب ، القاعة الرئيسية التى عثر فيها على رجال الطائفة،فتحة سرّية أخرى تؤدى إلى سرداب عميق بطول الجبل، طريقة نحت السرداب فى الصخور ودرجة ميله، نَحْتٌ على هيئة سلم فى الجانب الأيمن من السرداب، رسم آخر يوضح كيفية العبور فى حال المداهمة وانكشاف المستور، الخروج إلى صحراء بعد عبور نفق تحت الأرض بطول البلد ، مقدار المسافة بين الجبل والصحراء بالكيلو متر، الزمن الذى يقطعه العابر المجد بالدقيقة والثانية، أماكن تم وضع أطعمة وماء فيها للحفاظ على العابر حياً حتى يصل إلى

الصحراء سالماً ، طريقة حفظ الطعام والشراب حتى لا تصاب بالتلف، فتحات تهوية غير مرئية لبقاء النفس، وضع تعليمات فى مكامن لإرشاد العابر فى كل مرحلة يقطعها .

مسألة

لو أراد أحدهم أخذ امرأته معه ، إما لتهريبها أو للائتناس بها ، ما الذى يفعله إن دهمه طارق الرغبة فيها أثناءعبورهما السرداب .

الجواب

قد يحدث ذلك رغم غرابة السؤال ، فإن قال قائل هل هذا وقت المضاجعة والمهارشة وهما يطويان الأرض طياً هرباً من مصيبة ، فإن قال ذلك وقع فى خطأ بيّن لسببين : أولهما أن ظلام النفق يورث الوحشة والوحدة ، وثانيهما بُعد الشقة بين المسافر ونقطة أمنه وأمانه الا وهى الصحراء ، لذا يتطلب الأمر بعض الراحة وقليل من المسرّة ، وبما أن الرجل وامرأته ليس معهما ما يتساران به ، فلا بأس من لعبهما بأعضائهما ، وحتى لا يضيع الوقت فى العناق والتقبيل قبل الولوج ، فالمناسب فى مثل هذه الحالة هو وضع الوقوف ، وهو أن تستند المرأة إلى حائط النفق ، ويضع الرجل يديه خلف ردفيها ويحزّم وسطه برجليها ، ويرهز تحتها بينما يرفعها بيديه صعوداً وهبوطاً . أما إذا كان هذا الوضع من المتعذر القيام به ، فليضع إحدى رجليها فوق كتفه ، بينما رجلها الأخرى مثبتة فى الأرض ، وهى مستندة على حائط أيضاً ، ويرهز رهزاً قوياً حتى يفرغا معاً بلذة ، ثم يواصلان الرحلة . انتهى .

يقول المخطوط إنه بعد تكوين الكرسى الرئاسى الأعلى للطائفة ، واستقرار مقامه فى القبة ، حدث انقسام خطير ، فقد اختفى الخليفة السادس الحاكم بأمر الله الفاطمى ، فرفض أتباع الطائفة الاعتراف بمن تتابعوا بعده على العرش الفاطمى ، وأعلنوا انفصالهم عن الدولة ، توافق ذلك مع ظهور نجم حسن الصباح الذى اتخذ من قلعة الموت مقراً للحكم الطائفى

الجنــــة

«من عندى ، سوف يبدأ تاريخ العالم الجديد ، ومن الآن فصاعداً ، سوف يمسك أنفاسه بإشاره منى» . كانت تلك أول كلماته وهو يعيد بناء دولته ، وكان أول ما فعله ، هو تكوين قوة ضاربة ، تستطيع الوصول لهدفها بكل الطرق ، لا شىء يوقفها إذا ما أرادت ، فكر فى تكوين فريق للاغتيالات ، يكون اليد الضاربة الراهبة له ، بإشارة منه يغيّر مصائر بشر ودول وحكومات ، هذا الفريق الجهنمى هو ما عرف فيما بعد بالحشاشين أو الخناقين ، ومن أجل السيطرة على هذا الفريق ، أنشأ جنة كتلك التى قرأ عنها فى القرآن ، أقام أجمل حديقة يمكن أن تقع عليها عينا بشر ، أشجارها ملآنة بكل أنواع الفاكهة ، على جانب الحديقة بنى قصوراً ومقصورات عجائبية من صنع الخيال تجرى من تحتها أنهار من لبن وعسل وخمر وماء ، مَنْ يقمن على خدمة الجنة ، نساء من أجمل نساء الأرض ، جلبن من سمرقند والأندلس وبلاد فارس ، يجدن كل شىء ، بدءاً من العزف على مختلف الآلات الموسيقية والغناء والرقص ، وانتهاء بإقناع الرجال بأن

الحور العين هن فقط دون نساء العالمين . كان يريد أن يوحى لشعبه بأن هذه هى الجنة الحقيقية ، والآن لا يسمح بدخول الجنة إلا لمن أراد أن يكون حشاشاً ، كان يجلسهم حوله ويقص عليهم قصة الجنة والحور العين وأنهار الخمر والعسل وهم يشربون الحشيش ، حتى إذا ما عرف بتمكنه منهم ، نقلهم إلى جنته وهم نائمون ، وما أن يستيقظوا ويعوا ما حولهم ، خروا له ساجدين ..

استمر حسن الصباح يحكم الطائفة من قلعة الموت ، لكن قبة أبى الهواء لم تغب عن عينيه لحظة . كان يحلم بدخولها ، حكم الطائفة منها ، وكانت آخر كلماته التى قالها قبل وفاته فى العام ٥١٨ : لو قدر لى أن أملك القبة ، لحكمت العالم من فوقها .

شيخ الجبل

يقول المخطوط إنه بعد وفاة حسن الصباح ، حكم الطائفة عدة رؤساء تميز عصرهم بالدعة والخمول . أُطلق عليها مرحلة الكمون ، اقتصر فيها نشاط الطائفة على تنظيم الصفوف والمحافظة على المكاسب التى حققها حسن الصباح ، حتى جاء رشيد الدين المعروف بشيخ الجبل الذى جعل الطائفة تعيش مرحلةمن أزهى عصورها ، يورد المخطوط مقتطفاً من حياته كما رواه بنفسه : «نشأت فى البصرة ، وكان أبى أحد كبرائها ، وقد دخلت الدعوة إلى قلبى ، ثم حدث شىء بينى وبين أخوتى أجبرنى على تركهم ، خرجت على وجهى دون ذخيرة أو وسيلة ركوب ، وظللت سائراً حتى وصلت إلى ألموت فدخلتها ، وبقيت هناك حتى مات حاكمها وخلفه ابنه

فى الحكم ، فأمرنى بالذهاب إلى سوريا ، فانطلقت إلى هناك ، وكنت لا أدخل أية مدينة إلا نادراً ، وكان قد زودنى بأوامر وخطابات ، ودخلت الموصل ونزلت بمسجد النجارين حيث قضيت الليل هناك ، ثم واصلت طريقى لا أدخل أية مدينة حتى بلغت الرقة ، وكنت أحمل خطاباً لواحد من رفاقنا هناك فسلمته إليه ، وأعطانى الرجل مؤناً وأتاح لى وسيلة ركوب حتى حلب ، وهناك أوصلنى رفيق آخر إلى كهف قضيت فيه سبع سنوات، حتى أذن لى بالخروج فخرجت .. لم يمر وقت طويل حتى أصبح شيخ الجبل سيداً على قلعة الموت ورئيساً أعلى للطائفة ، ولكن كان حلم حياته أن يحكم الطائفة من فوق القبة ، وكانت كلمات رئيسه السابق تؤرقه فى صحوه ونومه «لو قدر لى أن أملك القبة» . ولا سبيل لامتلاكها بعد ما حدث ، فقد ذهبت الدولة الفاطمية لتحل محلها الدولة الأيوبية برجلها صلاح الدين ، الذى ما ان تسلطن حتى أعلنها حرباً شعواءعلى الطائفة ، ذهبت كل المحاولات للنيل منه سدى ، وفى إحدى الليالى كان شيخ الجبل مؤرقاً فأخذ يتجول داخل اللقعة فشاهد إناءً من الفخار موضوعاً فى طاق بأحد الأسوار ، فمد يده انتزعه من مكانه وقلب فوهته فوقعت منه ورقة مطوية ، ولما فردها وتحقق منها ، صفّق بيديه ابتهاجاً ، فقد وضع القدر أمامه خريطة تفصيلية لقبة أبى الهواء ، وذلك الممر السرى الممتد من الصحراء حتى داخل القبة ، وفى الصباح ، أخبر الطائفة إنه سيعلن خبراً سوف يهز الدنيا ، ولكن ليس من هنا ، إنما من فوق قبة أبى الهواء ، وأنه أذن لهم بالهجرة إلى القبة ، سيدخلونها من الصحراء متسللين دون أن يدرى بهم أحد ، وأن عليهم بالهجرة فرادى ليكون أمرهم سراً .

يقول المخطوط إن الهجرة استمرت ستة أشهر كاملة ، كان شيخ الجبل هو آخر مَنْ هاجر ، توافق ذلك مع قدوم شهر رمضان ، وفى الليلة السابعة منه ، اجتمع شيخ الجبل بأتباعه داخل القاعة الموجودة تحت القبة ، وأمرهم أن يظلوا ساهرين حتى الصباح ، وخرج هو فاعتلى القبة ومكث بها حتى ولىّ الليل وانتصف النهار ، ثم إنه نزل إليهم مرتدياً ثوباً أبيض وعمامة بيضاء متقلداً سيفه ، وتقدم من كرسى رئاسته ووقف أمامه ، ثم إنه تحدث معلناً أن رسالة وصلته من الإمام المختفى تخبرهم بأن القيامة سوف تقوم الآن .



4

كتاب النيل

اللهم إن كـان سعى عـبدك فى غـيـر رضاك والتلوّذ بحـماك تعـوذاً بك منك، فردنى خـائباً خـاسراً ، وإن لـم يكن بك غضب عـلىَّ فلا أبالى ، وإن كانـت النية طافـحة بالخلوص لوجـهك الكريم ، فزدنى ثبـاتاً وصبـراً على الإيغال فيمـا أنا فيه ، فما القبة إلاّ وسيلة لغـاية أسمى وأجلّ ، وما عروجى وتشحتفى نحـوها بهدف المواغلة فى قبة قيل ضمن مـا قيل عنها إن هى إلا رصداً مـن أربعة صنعـوا بالحكمة وعلوم الأقـلام ، يخبـرون بقدوم غـريب يغزو ، أو متنطع يحوم ، أو رزل يحط قدمه فى بلاد ليست له . إنما القبة رمز ولغز وكينونة مسـربلة بغيوم ديمومتها وأسرارها ، هى نشدان مـستحيل طال مكثه وكـمونه دون إدراك كنهـه ، إن هى إلاّ ممر للولوج إلى مصـائر فاتت ، وأمم وخـلائق عـاشت فكأنهـا مـا عـاشت ولا وعت وسـعت ، وعلى أى الأحوال ، فإن مَنْ فطن وتنبـه ، بحث عن المعنى المخفى ، لا عن طرطشات الكلام المعسول السائب دون لجام - فانتبه - .

نرجع مرجوعنا إلى ما كنا فيه ، فإننى بعد أن انتهيت من قراءة المخطوط، أخـذت أضرب كـفاً بكف وأنـا فى عجب من بنى آدم وطـغيـانه وجبـروته وكيف يشقى نفـسه بيده ، فها هى الطـائفة بكل رجالها ، وكبـيرهـم جالس بينهم شاخص ببـصره متتـبع روحه حال خـروجها بعد أن افـترى على الله كذباً وادّعى معرفة عـلـم السـاعة فقامت قيامة الجميع بغتة ، وضعت أوراق المخطوط فى سيالتى وهممت بالخـروج فإذا بالباب الذى دلفت منه ينغلق ، رجعت إلى مـوضعى الأول فانفتـح ، عاودت الخروج مرّة أخـرى فانغلق ، وقع الرعب فى قلبى وقلت لنـفسى إن هذا المكان لابد وأن يكون مـعلوناً ،

ولابد أننى هالك لا محالة بعد أن دخلت بقدمى فى هذه المقبرة الجماعية،فلما آيست من أمر خروجى ، أخرجت ما فى سيالتى من أوراق وضعتها فى الصندوق كما كانت ، واتجهت ناحية الباب وقلت عسى أن ينفتح أو أهلك دونه ، فإذا بالباب ينفتح وأجد نفسى خارجه ، فحمدت ربى وفرحت بنجاتى وقلت أقنع بما رأيت وأفضها سيرة ، وحانت منى التفاتة فرأيت باباً على يمين الممر الذى أنا فيه ، فحدثتنى نفسى الأمّارة بالسوء بأن هذا الباب وراءه ما لابد من مشاهدته ، وقويت الرغبة عندى إلى الحد الذى لم أستطع السيطرة على أعضائى ، فتقدمت ودخلت من الباب ، واجهتنى قاعة متلألئة الأضواء مفروشة بالطنافس ، وفى الصدر ، كتاب لم أعرف أوله من آخره موضوع على كرسى كأنه الملك على عرش ملكه ، والكتاب له رهبة ومهابة وتنعقد حوله الأنوار كأنها القمر إذا بدر ليلة أربعة عشر ، فتقدمت منه ، وجعلت بينى وبينه مسافة ، ووجدت مكتوباً على صفحة غلافه إنه كتاب النيل المبارك ، فتذكرت أحمد بن أباديس رحمة الله عليه ، وكيف أنه رأى هذا الكتاب من قبل، وإنه مد يده إليه فى لهفة ، فما يدرى إلا وشىء خرج منه لطشه فى وجهه حتى هج صوابه ووقع مغشياً عليه ، لأنه لم يكن يعلم بأن هذا الكتاب له رصد يحميه على مدار الدهور والأزمان ، المهم أننى تحرزت منه وركعت ساجداً لله تعالى عسى أن يمنع عنى شرّه وأذاه ، ثم أننى جلست متربعاً أمامه ، وصرت أتأمل هذا الكتاب النفيس ، قرأت الفاتحة وأهديت ثوابها لمن صنع هذا الكتاب الوحيد الأوحد الذى حوى من علوم الدنيا جميعها ، وحفظ لنا روح أمنا الطاهرة «مصر» تُرى من الذى كتبه ؟ هل هو واحد أم مجموع

من البشر ؟ فى أى زمان بدئ بكتابته ؟ هل اكتمل دفعة واحدة أم كتب على مراحل ؟

جميع من تحدثوا عنه لم يروه ، إنما هى تكهنات بوجوده ، فطالما يوجد نيل ، فلابد من وجود كتاب له ، سجل يحكى تاريخه ، من أين ينبع ، أصل نشأته ، مصباته ، روافده المختلفة ، البلاد التى يمر بها ، طوله وعرضه ، نهاية رحلته حتى مصبه فى البحر الأعظم ، كيف تم حفره ؟ وفى أى زمن بدأ ؟ من أول من تنبه له ؟ أيهما كان أسبق فى النشأة ، البلاد أم النيل ؟ اسم أول من شرب من مائه ؟ كيف كان طعم الماء ؟ .

الكتاب يدل على محتواه ، العناية الفائقة بالحرف ، بالجملة ، السطر ، المداد الذى كتب به والمموه بماء الذهب ، حروفه المتجسدة تكاد تنطق ، تشخص ما تعبر عنه ، حدّث أحمد بن أباديس أنه لحظة لمس حروف الكتاب ، أينعت الحروف زهوراً بيضاء وحمراء وصفراء ، وقال إن أحرف الكتاب صنعت من ماء وطين النهر ، حتى الورق صنع من نفس المادة ، وإن من خواصها إذا وقعت عينا إنسان على أى حرف يزهر فجأة ، شبه الحرف بالبذرة ، وقال إن النظر ينشط البذرة ويجعلها تُخصب فتزهر ، وقد تحقق كلامه ، فما قرأته من صفحة العنوان أخذ يتشكل أمامى أشجاراً وورودا ، فى منتصف الصفحة الأولى آية كتبت بخط الثلث العريض :

"وجعلنا من الماء كل شىء حى"

الآية الكريمة انشقت نهراً جرى بين الأشجار والورود صافياً رقراقاً ، ودون أن أمسّ الكتاب بيدىّ ، أخذت صفحاته تفر أمام عينى ، وكأنه آنس

لى ، ها هو يطلعنى على مكنونه ، ذخائره ، أسراره التى لم يطلّع عليها أحد قبلى ونجا ، حتى أحمد بن أباديس الذى لم ير منه سوى أجروميته ، مات بعد رؤيته حين لم يصدقه أحد برؤيته كتاب النيل ، الكتاب الذى ظن البعض أنه حكاية من حكايات الخيال ، أسطورة لم يعرف مصدرها أحد ، فقط شائعة ، والكتاب لابد أنه موجود فى مكان ما ، طالما توجد حياة فى الوادى ، ولكن هل رآه بشر ؟ هل جلس بين شاطئيه مثلما أجلس الآن ؟ هل هى خدعة منه أن يطلعنى على مخابئه لعلمه أننى لن أغادر القاعة حياً بعد قراءته ؟ فلو أفلت حياً ، فسوف ينفلت لسانى بالبوح ، أحدّث العالمين عما عرفت ، أذيع سراً لم يعرفه غيرى ، لن أطيع الكتم ، فما أنا من الصنف الكتوم ، إن إنا إلا حكاء وقع فى زمن جفت فيه ينابيع الخيال ، لكنها صنعتى ، لا أعرف غيرها ، فإن بارت ، فعليه العوض .

***

ذكر سيرة عوج بن عنق
وكيف ساق النيل أمامه
حتى جاء به إلى بلاد
مصر ، كذا ذكر
قصة طوفان
نوح

*

يقول كتاب النيل : وحدث أن أمر الله نبيه نوح بأن يغرس أشجاراً

تكفى لصناعة الفلك، فغرس نوح أشجار الساج فنمت فى أربعين سنة ، ثم أمره بقطعها وتجهيزها ، فأعيت نوح عليه السلام فى كيفية نقلها ، فكان أن نقلها عوج بن عنق مقابل إطعامه وشرابه ، فلما فعل ذلك ، جهّز نوح عليه السلام الفلك وحمل فيه من كل صنف اثنين ، وجاء الطوفان ، وغمر الماء كل شىء ، وطفت السفينة على الماء أربعين ليلة ، وأراد عوج أن يحمل فى السفينة فمنع من ذلك ، فصار يمشى بجانبها ليأتنس بها وماء الطوفان الذى غمر كل شىء لم يكن يصل حتى ركبتيه ، فإذا جاع مد يده فى الماء فيصطاد حوتاً عظيماً ، ورفع يده حتى تبلغ السحاب فيشويه على الشمس ، وعوج ابن عنق هذا ، سيدرك زمن موسى عليه السلام ، وسوف يقتل على يديه ..

فلما غاض الماء ، ورست السفينة على الأرض ، افترق عنها عوج بن عنق واتخذ طريقه نحو الأرض الكبرى حتى وصل إلى جبل يسمى جبل القمر ينبع منه الماء ويسيح على وجه الأرض ، وكانت الأرض طرية من آثار الطوفان ، فأخذت أقدامه الضخمة تحفر مجرى عميقاً ، وبدأ الماء يتجمع متتبعاً آثار أقدامه فكان كلما نظر خلفه وجد الماء تحت أقدامه فأنس به ، جاب عوج أرض الحبشة ، ثم عرج على السودان حتى انتهى إلى مصر ، وعند مدينة سوف تسمى فيما بعد بالقاهرة ، اتخذ طريقاً فرعياً أوصله إلى مدينة دمياط فوجد البحر الأعظم أمامه فكر عائداً من حيث أتى وواصل رحلته فى اتجاه آخر أوصله إلى مدينة رشيد ، ومثلما وجد فى دمياط وجد البحر أمامه يعوقه عن التقدم فعاد مرة أخرى حتى وصل أسوان ، وكانت رحلته قد رسمت مجرى النهر إلى الأبد فأخذ الماء يتدفق عبر قدمى عوج بن عنق .

هل رأى عوج بن عنق القبة ؟

يقول الكتاب أنه بعد أن وصل إلى أسوان أراد أن يستريح ، أخذ يبحث عن مكان يأوى إليه ، فما وجد غير جبل كان الوحيد على مشارف بصره ، خطى خطوتين فأصبح عنده ، كان الجبل عالياً ، لكنه بالكاد كان يصل إلى ركبتيه ، جلس عوج على الأرض واتكأ بظهره على الجبل ، ومد ساقيه باتجاه ضفتى النهر فكونتا قنطرة تربط ما بين الضفتين ، وأراد أن يريح رأسه على قمة الجبل فلم يستطع ذلك ، فأحضر صخرة عملاقة.اتخذها فوق قمة الجبل متكئاً لرأسه ، وراح فى النوم مدة ستمائة سنة حتى صحا فى زمن موسى عليه السلام وجرىٍ عليه منه ما هو معروف ومدون ، أما الموضع الذى وضع فيه رأسه عند نومه ، فهو ما عرف بعد ذلك بقبة أبى الهواء .

حكاية تتعلق بسرّ النيل

وان من أراد معرفته

مات من وقته وساعته

يقول الكتاب إن للنيل سرّه المخفى عن الخلائق ، لا أحد دنا منه ونجا ، لذا فقد كثرت الأقاويل حول نشأته ، من أين ينبع ، علاقته بالنجوم والأفلاك ، تأثير الأبراج فى جريانه ، قيل هو ينبع من الجنة ضمن أربعة أنهار كبرى : سيحان وجيحان والفرات والنيل الذى هو أعظمها ، تتفق الآراء على أنه نهر العسل فى الجنة ، له كراماته الخاصة به وحده ، منها أنه إذا جفت كل أنهار الدنيا ، فإنه يزيد ويفيض ، ومنها أنه يجرى عكس كل أنهار العالم ، فإنها تجرى من الشمال إلى الجنوب ، أما هو فيجرى من

الجنوب إلى الشمال حتى يصب فى البحر المحيط ، وإن بعض الملوك أمر بالسير إلى حيث منابع النيل ، فساروا حتى وصلوا إلى جبل ، والماء ينزل من أعلاه بدوى وهدير صم آذانهم وجعلهم لا يسمعون بعضهم ، ثم إن أحدهم صعد إلى أعلى الجبل لينظر ما وراء ذلك ومن أين يأتى الماء ، فلما وصل إلى أعلاه ضحك وصفق بيديه ثم مضى إلى خلف الجبل ولم يعلم أصحابه ما أصابه ، ثم إن رجلاً آخر منهم صعد ليرى ما وراء ذلك الجبل وما كان من أمر صاحبه ، ففعل مثله ومضى فى الجبل ، فطلع ثالث بعد أن قال لأصحابه اربطونى من وسطى بحبل ، حتى إذا ما وصلت إلى ما وصل إليه أصحابى وفعلت كما فعلوا فاجذبونى من الحبل فلا أبرح مكانى ، ففعلوا ، فلما صار فى أعلى الجبل صفق بيديه وأراد أن يمضى فجذبوا الحبل عندهم ونزل إليهم ، فلما وصل خرس لسانه ولم يرد جواباً ، وأقام بينهم ساعة ومات ، فرجع القوم ولم يعلموا غير ذلك من أخبار النيل .

***

كم من الوقت مضى وأنا جالس بين يديه يحكى لى ؟ عن الأيام السابقة للطوفان حكى ، عن فراعين جاءوا وبنوا وشيدوا ما سوف يظل أبد الدهر حياً وشاهداً ، عن غزاة الوادى حكى ، عن كيف بدأ الخلق ، وكيف ينتهوا ، عن أسراره باح لى ، خصنى بكينونته ، فضح نفسه أمامى ، تعرى دون خشية خجل ، فر صفحاته أمام عينى ، لا تكاد تنتهى حتى تبدأ بداية أخرى من نقطة أخرى ، خصوبته ظاهرة ومترعة ، فيضانه جامح ، مصباته تتلوى أمامى ، كادت روحى تذهق من بدنى النضاح بالعرق ، أنفاسى لهاثها يسمع على مسيرة يوم ، طفح قلبى بمعرفة يقينية بأنى ميت لا محالة ، فكيف

اباح لى ، وما أنا من حفظة الأسرار ، كيف أكتم أحوالى وأدارى على شمعتى ، هل اهجر صنعتى وأفضها سيرة إذا أردت أن اشترى عمرى؟ ، هل أحلف له بالكتمان ؟ وهل هو مصدقى ؟ وجف قلبى وارتعبت ، انكبيت على وجهى وانفطرت بكاءً ، لقد مشيت دون أن أدرى فى سكة اللى يروح ما يرجعش ، والآن ، فإن مصيرى معلق بين دفتى هذا الكتاب . جلست مطرقاً مدّة ساعة منتظراً ، ترى ما هى خطوته القادمة ؟ ما الذى سيفعله بى ؟ من أين يبدأ عطبى ؟ الضربة الأولى من أى جهة تجىء ؟ وكيف سيكون الوقع ؟ هل ينتهى مصيرى من اللحظة الأولى ؟ هل يحتدم الصراع بيننا وأبدى مقاومة ؟ كيف أفسر صمته المفاجئ بعد فيضانه ؟ وبينما أنا هكذا يمتد بى شطح الأسئلة حتى منتهاه ، وتأخذنى التوهمات إلى آخر المدى ، إذ خرجت من الكتاب ريح صرصر مباغته أطاحت بى وحملتنى حتى رفعتنى فى سقف القاعة فما عدت أدرى موضع راسى من قدمى ، ثم جذبتين فى اتجاه الكتاب حتى التصقت به ، وانطبق على فحصرنى وعصرنى بين دفتيه ، وأيقنت أنه من هنا تجىء الضربة القاسمة ، وأن قيامتى قامت ، وأنا أموت الآن بين دفتى كتاب لعين ، وأنه لحدى حتى تقوم الساعة ولا من شاف ولا من درى ، فتغرغرت بالدموع وقلت كلمة لا يخجل قائلها : لا حول ولا قوة إلا بالله ، ثم نطقت الشهادتين وأسلمت نفسى للذى لا يموت ، واحسست روحى تنسحب من جسدى وتسبح فى ظلام حالك زمناً خلته لن ينقضى ، ثم لاحت لى بارقة ضوء من بعيد كنت أتقدم نحوها بسرعة شديدة حتى أشرفت عليها وتجاوزتها ، وهبت عاصفة شديدة مثل الأولى أخذتنى وطوحت بى فوق جبل ، فلما أفقت بعد أن

غشى علىّ مدة ساعة زمانية نظرت إلى الجبل الذى أنا فوقه فوجدته مثل وتد عملاق ، فليس له عرض ، بل طويل ونحيل مثل مسمار ، وحين نظرت لأسفل كدت أفارق رهبة وخوفاً ، فلم تستطع عيناى بلوغ الأرض من شدة العلو ، وبعد أن مرت ساعة وأنا أجيل النظر علّى أجد طريقاً يأخذنى لأسفل حتى أعيتنى الحيلة ، وعلمت أننى وقعت فى بلاء أعظم مما مر بى سابقاً ، ولم أعد أتجاسر على النظر لأسفل وقد تحقق لدى أن لا خلاص لى وعظم الأمر واشتد الجوع والعطش ، وفيما أنا على ذلك ، وإذ بى أسمع صوتاً كصوت الرعد القاصف وقد أخذ يشتد ويعظم كلما دنا منى، فاعترانى من الخوف والرعب الكثير ، وكاد يغمى على ، وبقيت نحو ساعة زمانية وأنا كالغائب عن الوجود ، ثم وعيت إلى نفسى وإذ بطائر عظيم الخلقة ما رأيت فى حياتى أكبر ولا أعظم منه ، فحط بالقرب منى ، فلما رأيت ذلك أيقنت بالهلاك ، فإنه إذا نظر إلىّ ورآنى يلتهمنى ، وظللت مدة على ذلك لا آتى بحركة حتى لا يرانى الطائر ، والطائر لا يلتفت لى ولا يهتم بوجودى ، فقلت فى نفسى : ماذا لو تعلقت برجلى هذا الطائر وربطت الحزام فى ساقه اليمنى دون أن يشعر بى وأخذت أترقبه طوال الليل إلى أن بزغ الفجر فنشر الطائر جناحيه وهم بالطيران فتعلقت بالحزام فأتلع فى الهواء وأخذ يصعد فى الجو الأعلى وأنا كلما نظرت إلى الأسفل لا أرى أرضا ولا اى شىء فيرقص قلبى رعباً وخوفاً ، واستمر الطائر آخذاً فى الصعود إلى طبقات الجو الأعلى حتى وقت الظهر ، ثم عاد إلى الهبوط شيئاً فشيئاً حتى اقترب من الأرض ، وخفت أن يصعد مرة أخرى فرميت نفسى على الأرض وقد غبت عن الوجود مدة ساعة فلما عدت إلى وعيى ،

فتحت عيني . وإذا بي أجد نفسي وكأني في جنة النعيم ، إذ رأيت أرضاً واسعة مزينة بالرياض والنباتات والأشجار ذات الثمار ، فلبثت نحو ساعتين متحيراً مبهوتاً ، ثم نهضت من مكاني وقطفت بعض الثمار وأكلت حتى شبعت ، ثم شربت من نهر كان يشق الأرض ماء صاف فكانت مياهه مثل العسل المصفى ولبثت جالساً في مكاني حتى أقبل الليل فخفت أن يفترسني وحش فنمت فوق شجرة ضخمة حتى أصبح الصباح فنزلت من فوق الشجرة وأخذت الجول في أنحاء المكان فرأيت ما تعجز عنه الأوصاف، كانت الأرض تشبه الجنة في كل شيء ، فكانت مغطاه بالأشجار والأزهار المتنوعة من كل صنف ولون ، وعلى الأشجار تصدح الطيور وتترنم بكل الأصوات ويشق النهر طريقه بين الأشجار ويتفجر ينابيع وعيوناً تجرى صافية كالفضة البيضاء فترى الأسماك ذات الألوان الزاهية تسبح في الماء آتية وذاهبة ، فأخذت أتفكر في ملكوت الله ولطفه بي وكيف حسبت نفسي ميتاً بعد وقوعي بين دفتي كتاب النيل ، فحمدت ربي على نجاتي ، وصرت أتنقل بين تلك الربى حتى أقبل المساء فأكلت لذيذ الثمر وشربت ماءً صافياً ، وكان القمر في ليلة تمامه فأنار على تلك الجنة وقد زاد سروري وانشرح صدري ، والنسيم اللطيف يحمل أطيب الروائح، فجلست مقدار ساعتين وأنا أتأمل إلى أن انتبهت على غيمة بيضاء ظهرت في الأفق ، مرت على القمر فلم تحجب نوره وهي تقترب شيئاً فشيئاً وتساقط كما المطر حتى لم يبق لها أثر ثم رأيت آلافاً من الأنوار الساطعة مقبلة من مسافة غير بعيدة . أما أنا ، فقد عراني الخوف الشديد عندما رأيت ما رأيت ، وقلت في نفسي عجباً لهذه الأنوار ، وجعلت أدقق فيها وهي

تقترب منى ، وفى الحال أسرعت إلى شجرة عظيمة تسلقتها واختفيت بين أغصانها وأنا أرتجف ، فلما اقتربت الأنوار صارت تحت الشجرة فتأملتها فرأيت نحو خمسمائة فتاة لا نظير لهن فى الحسن والجمال ، وفى أيديهن شمعدانات من الذهب مرصعة بأنواع الجوهر وقد تقدمن فى صفوف ووقفن يضحكن ويمزحن ، وكن أحضرن على أكتافهن الفرش الفاخرة فوضعنها ثم وضعن سريراً مجوهراً ومنقوشاً بأبدع نقش ، ثم وقفن بترتيب وفى أيديهن شموع من الكافور موقدة كأنهن ينتظرن أحداً ، وفيما أنا مشغول بالتفكير فيما يحدث حولى ، وإذا بأنوار عظيمة ظهرت من الجهة التى أقبل الجوارى منها ، وكانت الأنوار مقبلة لجهتى ، وإذا بها فتيات على نفس الهيئة الأولى ، غير أنهن كن أبهى حسناً وجمالاً ، وأكثر إشراقاً من الأخريات ، وفى وسطهن فتاة بديعة ا لجمال باهرة المحاسن لم تر عينى أجمل منها كما قال فيها بعض واصفيها :

تبارك بحسن تبارك الله
جل الذى صاغه وسواه
كل الورى فى جماله تاهوا
قد كتب الحسن فوق وجنته
أشهد أن لا مليح إلا هو

وكانت كلما قربت منى زاد وجهها بهاءً وإشراقاً وأخذت محاسنها بمجامع قلبى ولم أعد قادراً على الثبات فى مكانى فكدت أقع فتشبثت جيداً، فلما اقتربت الفتاة من السرير والجوارى بين يديها فجلست وجلس بعض الجوارى حواليها وهى مطرقة إلى الأرض ، ثم رفعت رأسها وقالت:

أسمع صوتاً فوقى ، ولابد من وجود شخص غريب هنا ، وأمرت الجوارى بالذهاب للبحث والتفتيش . وبينما أنا أفكر فى الخطر المحدق بى ، كانت الجارية التى تشبهها حسناً وجمالاً تقترب من الشجرة التى أقف فوقها فجعلت تطوف حولها حتى وقعت عيناها علىّ فتبسمت وقالت انزل ولا تخف ، فليست الشجرة مكاناً لائقاً بك ، فبعد أن سمعت منها هذا الكلام اللطيف نزلت وقد اطمأن بالى وهدأ فكرى . وأخذتنى الجارية إلى سيدتها وسيدة الكل فأجلستنى بجانبها وأخذنا فى المنادمة ، وأنا كلما نظرت إلى وجهها لم أقو على الصمود فأرد بصرى مرة أخرى وقد أخذنى الانبهار من كل ذلك الحسن والجمال فليس لهما نظير فى الدنيا ، ومرت ساعة ونحن على تلك الحال ، فأمرت جواريها بإحضار الطعام والشراب ، فأحضرن الطعام بسرعة لا يمكن وصفها وأتين بسفرة عليها أطباق من الذهب المرصع بالدر والجوهر وفى داخلها من الأطعمة أشكال وألوان ، وكانت روائح العطر والعنبر المنبعثة من الأطعمة تشرح الصدر وتجلب السرور ، كذلك أقداح الشراب بعضها من حجر الفيروز وبعضها من الياقوت الأحمر ، فأخذتنى من يدى وجلست بجانبها وحولنا البنات بالشمعدانات المضاءة ، وصارت تنادمنى وتلقمنى فى فمى وأنا كنت جوعاناً فأخذت آكل من يدها حتى اكتفينا ، وأحضرت البنات الأباريق فى الحال وأخذن فى غسل يدى بماء الورد ونشفنها بمناشف من الحرير البديع اللون ، وغسلت هى أيضاً بعدى ثم أخذتنى من يدى وذهبت بى إلى السرير فجلسنا عليه ، وبعد ذلك حضرت سفرة الشراب ، وتقدم نحو من خمسة عشر فتاة لخدمتنا فملأن الأقداح وناولننى وناولن سيدتهن فشربت وشربت ، وأخذ الشراب يدور

علينا وقد أحضرن آلات الطرب من العود والقانون والناى والجنك والدف وجعلن يضربن عليها وهن يغنين ويطربن بأعذب الأصوات وأشدها رقة وعذوبة حتى هاج غرامى وهيامى وبت لا أعرف رأسى من رجلى ، وكيف لا وأنا فى حضرة هذا الجمال الذى كاد يغمى علىّ من شدته ، فظهرت على وجهى علائم الفرح والنشوة ، فلما رأت فتاتى ما أنا فيه تبسمت وقالت بلسان عذب وصوت كتغريد البلابل : إن شاء الله يكون قد زال عنك العناء ولم يبق عندك شىء من الخوف والخجل. فقلت نعم يا منيتى ، يكفى جلوسى قربك والتمتع بالنظر إلى وجهك ، فإنى الآن فى أتم الحظ والانشراح ، فسرت من كلامى وأظهرت لى من دلائل الحب زادنى جرأة إذ طوقت عنقى بذراعيها الناعمين ، فكدت أغيب عن الوجود ، وكان الشراب العتيق قد نال منى مع تلك الأصوات البديعة ومن رقص البنات الجميلات ذوات القدود المائسة والعيون الناعسة ، وهن كالبدور الساطعة ، كن ينهضن عشرات عشرات ويرقصن رقصاً يذهب العقل ، وكانت فتاتى على مثل حالى ، فوجنتاها التهبتا احمراراً حتى فاقتا الورد ، ورأيت شفتيها محمرتين يكاد الدم ينفجر منهما فدفعنى ذلك إلى تقبيلها وتطويق عنقها ، فلما سكتت ولم تبد ممانعة أخذت فى تقبيلها فى شفتيها وعنقها وأنا أشعر بلذة عجيبة ولم أعد أعرف كيف أنصرف فمددت يدى إلى صدرها فلما لمست نهديها غبت عن وعيى لأنى شعرت بيدى تلمس جسماً ناعماً كما لا توجد نعومة فى أى شىء فى هذه الدنيا ، وأخذت يدى تلعب بنهديها واقتربت بشفتى منهما وأخذت أقبلهما وأشم ما ينبعث منهما من عبير الروائح العطرية التى تنعش الصدور وتبعث الموتى من القبور ، وكنت فى المرة بعد

الثانية أضع شفتى على حلمة الثدى الوردية المتصبة فأمتصها مصاً لطيفاً حلواً ، ودعتنى الشهوة فأرسلت يدى إلى المكان المطلوب والسر المكنون فكأنى لمست بقجة من الديباج محشوة بقطن مندوف لا يوجد أخف ولا أنعم وأملس منه ، حينئذ دفعتنى الصبية بلطف وتبسمت وقالت مهلاً يا ضيفى العزيز فكن قانعاً بالمداعبة والملاعبة والضم والتقبيل فلا يمكن أن أسمح لك هذه الليلة بالوصال ، وإن كنت تحبنى وترغب فى مصاحبتى فلا تخالف كلامى واصبر وتحمل فتنل كل ما تريده ، وإذا كنت لا تقدر على التحمل الآن فهاك كل هؤلاء البنات فهن أبكار وعلى حسن وجمال ولا يوجد لهن مثال فاختر واحدة تنم معها أو إن شئت فكلهن أمامك إن تقدر ، ثم قالت : دعنى أختار لك واحدة ، ثم أشارت لجارية بديعة فى الحسن والجمال ، فتقدمت منى وأخذتنى من يدى وتقدمتنى قليلاً وأنا أسير خلفها فرأيت قوامها الممشوق وهى تميس وتتثنى أمامى ومؤخرتها ترجرج فكأنها الماء ، وما زلنا نتقدم حتى وصلنا إلى صيوان منصوب ، فرش بالأبسطة البديعة الفاخرة وقد جلس حوله مئات من الجوارى الحسان ، فلما رأيننى قمن ونهضن لاستقبالى ، ثم التففن حولى وقدمننى إلى سرير فى جانب الصيوان فأجلسننى وانصرفن ، وجاءت فتاتى التى اختارتها لى صاحبتى ، فلما أمعنت النظر إليها تعجبت ، فهى لا تختلف فى جمالها ومحاسنها عن صاحبتى ، ولأول وهلة شعرت بأن هناك خدعة ، فربما كانت هذه الفتاة هى فتاتى الأولى وقد غيرت ثيابها لتمتحننى ، لكن بعد أن دققت النظر علمت أنها تشبهها فقط ، وإنها بارعة الجمال ، ثم إننى أخذت أقبلها وأعانقها لأطفئ شوقى إلى الأخرى ، وأخذت هى أيضاً فى المعانقة والبوس حتى

انحلت مفاصلى ولم يبق لى رمق إلا إذا وضعت المرود فى المحكلة ، وإذ ذاك نهضت الصبية فأحضرت الشراب وناولتنى من يدها فأخذت أشرب وأعانق وأقبل وأرشف وأمص حتى بلغ السيل الزبى ودار الشراب فى رأسى فغبت عن الوجود ، وفى الحال نزعت ثيابى ونزعت هى الأخرى ثيابها وجذبتها إلىّ والتصقت بها التصاق اللام بالألف فأزلت بكارتها ، وصرفت باقى ليلى معها بلذة لم أذق مثلها طول عمرى .

فلما أصبح الصباح ، وأضاء الكريم بنوره ولاح . استيقظت أنا والصبية فأخذت تمرسنى وتقبلنى حتى قضينا حاجتنا من بعضنا البعض ، ثم أنهضتنى وأخذتنى من يدى إلى صيوان آخر فخلعت ملابسى ، وأخذت فى صب الماء على رأسى وبدنى وهى تملس على جسدى وتدعكه ، فلما انتهت من تحميمى ، ألبستنى ثوباً ملوكياً وأخذتنى من يدى مرة أخرى إلى الصيوان الأول فأجلستنى وتركتنى لتستحم هى أيضاً .

وبعد أن جلست وحدى ، نهضت وقصدت الخروج إلى الحدائق للتنزه ، وبعد أن طفت نحوا من عشرة دقائق عدت إلى الصيوان وفى ظنى أن أجد الفتاة قد فرغت من الحمام ، وأنها فى انتظارى ، ولكنى لم أجد الصيوان ولا الفتاة ولا شىء غير ذلك فجلست مذهولاً عدة ساعات وأنا لا أصدق بما حدث ، فلا يمكن أن يكون كل ما جرى لى حلماً ، فلم أكن نائماً ولابد أن ما حدث لى كان حقيقة . ولم أجد ما أفعله سوى أن أضع رأسى بين ركبتى وأبكى جنتى التى ضاعت وهؤلاء الفتيات الحوريات وما فعلنه معى، ثم قمت وأخذت أطوف فى الأرض كالمجانين وأنا أقول أين يا ترى أجدهن ؟ ، وإلى اى مكان ذهبن ؟ ومن اين اتين ؟ وهل يمكن أن يتاح لى

رؤية تلك الصبية رائعة الجمال والتى أخذت قلبى معها وتركتنى صريع هواها ، وظللت هكذا أطرح السؤال تلو السؤال وكلما تذكرت ما كنت فيه انهمرت دموعى ، ونسيت الطعام والشراب حتى أتى المساء فقلت فى نفسى ربما كانت عادتهن أن يذهبن فى الصباح ويأتين فى المساء فلأذهب إلى المكان الذى وجدتهن فيه بالأمس ، وبالفعل ذهبت إلى حيث كان اللقاء الأول وجلست أنتظر وأنا بين لعل وعسى وقمت إلى النهر فغسلت وجهى ورأسى ، وخيل إلىّ فى لحظة ركوعى إلى الماء إنى رأيت وجهها يطل من خلال الماء لحيظات كانت تقترب وتنبعث منها الروائح العطرية ، وحينئذ تيقنت من أنهن الفتيات فصفقت من الفرح وتفزت فى الهواء أكاد أطير ، وأما البنات ، فقد بدأن بالورود أفواجاً أفواجاً وأخذن فى تهيئة الأبسطة وتهيئة المكان كما كان بالأمس ثم نصبن السرير فى الوسط ووقفن ينتظرن سيدتهن ، وإذ بالمشاعل ظهرت من بعيد ووصلت صاحبتى وجلست على السرير وانتظمن حولها كما تنتظم النجوم حول القمر ، فاقتربت من السرير غير خائف ، فلما رأتنى البنات وقفن بين يدى ، ونزلت حبيبتى عن سريرها وأخذتنى من يدى ورفعتنى إلى جانبها ، أما البنات فأخذن آلات الطرب بين أيديهن وبدأن يعزفن عليها ويغنين بأصوات رخيمة ، وبعضهن قمن للرقص وقد كشفن عن سيقان كأغصان البان وعن نهود كأنها كواكب درية تنبعث منها الأنوار ، ثم إن فتاتى أبدت لهن جميعاً إشارة الانصراف فقمن فى الحال وابتعدن ، فكدت أطير فرحاً لظنى أنها أرادت أن تخلو بى فضممتها وأخذت أمتص من شفتيها ريق أحلى من العسل المصفى ، وهى لم تمانع وأنا أضم وأقبل وأمتص وادغدغ وأداعب ،

ولم أعد أطيق صبراً فطلبت ما تطلب الرجال ولسان حالي يقول :

إنما الوصـل للمحبـة شـاف

مثل ماء يصب فوق الحريق

فلما رأت الفتاة ما أنا فيه من انـعدام الصبر ، وأنني أخذت سروالها بين أصابعي تلمساً لما تحته . امسكت يدي وقالت صبراً يا حبيبي لا تكن عجولاً تندم فيمـا بعد ففي التأني تنل ما تشتـهي ، فقلت هيهات يا حبيـبتي أن أقدر على الصبر وأنشدت هذين البيتين :

كيف اصطباري والهوى في أضلعي

سرى فما منه مكان قد خلا

مـع أن مـن احببته أحـظى بـه

نمشاهــداً ومعانقاً ومقبـلاً

ثم زاد بي الوجـد من شدة العـشق والهـيام فـجـرى لسـان حـالي بما في نفسي :

لو قلت للقلب صبراً في محبتها

لما أطـاع فـإن الصـــبر يضـنيني

ويلي إذا لـم أنل مـا سحرت بها

وصلاً من السقم يشفيني ويحييني

فقالت وهي تتبسم تبسـم الدلال والفـتنة : لقد أفهمتك منذ الليلة الأولى بلزوم الصبر والتـأني وإلا فسوف تندم ، أما إذا صـبرت نلت ما أنت طالـب فلا تضيعني بقلة صبرك . ثم أشـارت لإحدى جواريها وكانت لا تقل عنها

جمالاً فأخذتني من يدى ونمت معها فى السرير .

فلما أفقت من نومى لم أجد أحداً بجانبى كما حدث بالأمس وكالعادة، فقد جئن فى المساء ، وأخذتنى حبيبتى من يدى فأجلستنى بجانبها وأخذت تداعبنى وأداعبها حتى نفذ صبرى فقلت لها : يا حبيبتى هذه هى ليلتى الثالثة معك ، وأنتى تمنعيننى عنك ، وأنا لم أعد أصبر ولابد من أن أجعلك تحتى هذه الليلة وإلا فسوف أقتل نفسى ويصبح دمى فى رقبتك . فلما سمعت مني هذا الكلام أطرقت وقد تورد خداها وسال العرق على جبينها وعنقها ، ثم إنها نظرت لى وقالت : إنك بتسرعك هذا سوف تفقدنى إلى الأبد ، وإذا كان لابد من ذلك فدعنى أريك شيئاً تقرأه ، فإذا فهمته ترجع عن طلبك ، وإلا فافعل ما تريد . وطلبت من جواريها صندوقاً أخرجت مفتاحه من جيبها وفتحته وأخرجت منه كتاباً أول ما رأيته عرفته ، ذلك هو كتاب النيل الذى جاء بى إلى هذا المكان ففتحته على صفحة فرأيت صورتها بطول الصفحة والماء يخرج من فمها وأنفها وأذنيها وشرايينها وقدميها فكأنها النيل ، فلما رأيت ذلك تعجبت ولم أفهم فنظرت إلىّ وقالت : ألا زلت مصراً على رأيك . فأعطيتها الكتاب وقلت : هذا لابد منه فإننى إن لم أفعل عدمت نفسى أمامك فى الحال .. فتيقنت من صدق طلبى ونيتى ، ثم إننى قبضت على خصرها بيدى وطال سلاحى وكاد يخرج من غمده ، فلما رأت الفتاة ذلك ، قالت لى : أدر وجهك حتى أتهيأ لك . فأدرت وجهى فى الحال فرحاً بنيل الوصال ، ولم تمر دقيقة حتى قالت: در بوجهك حتى تنل المراد ، فأدرت وجهى - ربنا يكفيكم شر ما رأيت - فإذ بى ألطخ لطخة مثل المرزبة على عينى فغشى على مدة ساعة ،

فلمـا أفقت ، تلفت حـولى فلم أجد أحـداً ، ووجدت نفـسى فى صـحراء بلقع، فـشرعت فى نتف شـعـر راسى وخبط يدى على صـدرى وأنا أبكى وانوح من كبد مـجروح وأقول ليتنى سـمعت كلام الصبيـة ، ليتنى انتظرت كـمـا قـالت ، ليـتنى وليـتنى ، وندمت حـيث لا ينفع التدم عـلى الجنة التى أخرجتنى منها ، ولكن أنا السبب بتسرعى ولهفتى فلا ألوم إلا نفسى ، ثم قمت وأخذت أمشى فى الصحراء ، وكلمـا مشيت فلا يوجد سوى رمال ، إلى أن جئت خلف جـبل رملى وجلست من شدة الإعـياء وضـربنى اليأس فـاوهننى وأدركت أنى مـيت لا مـحـالة ، ربما من العطش ، أو الجـوع ، أو يخـرج وحش فيـلتهـمنى ، شـددت حيلـى وأخذت أصـعـد جبل الرمـال بإحساس من هو مفارق ، واصلت صعودى حتى وقفت على قمته ، ورأيت تحته نهراً من الماء الجارى رد لى روحى وانتعشت بالأمل فأخذت أنزل الجبل وانا أجـرى فأتدحـرج حـتى وصلت إليـه ورميت نفـسى فى الماء وأخـذت أشـرب وأغـتسل فـكان ماءه أحلـى من العسـل ، بعد أن شـربت كـفـايتى ورطبت جـسدى أخـذت أجدّ فى السير بمحـازاة النهر زمناً لا أدرى مـدته علنى أجد أحـداً من البشـر ، أو طريقاً أسلكه إلى بيتـى ، حتى وصلت إلى جبل يعـترض النهر ، والماء ينبع من ذلك الجبل ويصب فى النـهر ، وحانت منى التفاتة إلى رجل قائم يصلى تحت شجـرة تفاح بالقرب من الجبل ، فلما رأيته استأنست به وتقدمت منه سلمت عليـه فقال لى من أنت ، فذكرت له اسـمى وحـسـبى ونسبى ، فلمـا سـمع ذلـك نظر لى وتبـسم ، وأشـار لى بالجلوس فجلست أمامه وقلت له أين أنا ، وما الذى جعلك تقيم هنا منفرداً بينما أرض الله واسعة ؟

قال الشيخ : أما أين أنت فأنت على شط النيل المبارك ، وأما أنا فاعلم أننى أبو العباس الخضر ، وعن تبسمى عند سماع اسمك لأننى أنتظر مجيئك ، فأحد لم يسح سياحتك هذه ، لا قبلك ولا بعدك ، لكن الكتاب اختصك دون غيرك هل تعرف لماذا ؟ لأنك منه ، وأنت ابنه فاغتنمها فرصة واجتهد فى معرفة النيل - أبيك - فما جئت لهنا إلا لهذا السبب . ثم قال مشيراً لاتجاه الجنوب : ستمر عليك حية ترى آخرها ولا ترى أولها ، فلا تفزع لرؤيتها ، وهى معادية للشمس ، فإذا طلعت الشمس هوت إليها لتلتقمها ، ولحظة ترى ذلك ، اركب على ظهرها ، فإنها تذهب بك إلى نقطة لا أحد غيرها يصل إليها عند الشاطئ الآخر للنهر ، فامشى فى بره ، فإنك تقع فى أرض من ذهب ، وبها جبال وأشجار . فلما مضيت وفارقته بعد أن دعى لى ، فعلت ما قاله لى حتى وصلت إلى أرض الذهب ، فنظرت إلى قبة من الذهب ولها أربعة أبواب ، ورأيت النيل ينحدر من جوف تلك القبة ، وأردت المضى إلى ما وراء القبة ، فإذا بصوت أسمعه ولا أرى شخصه يقول لى :

قف مكانك ولا تتقدم ، فقد انتهى إليك علم النيل ، فاقنع بما وصلت إليه ، فما وراء ذلك إلاّ الجنة .



5

المرصد

يقول ابن تهانى فى مصنفه الوحيد، الفريد فى نوعه والمسمى «المقاصد فى المراصد» أن القبة شيدت لغرض الرصد والإخبار بقدوم غريب، وأنها واحدة من أربعة يطلون على حدود الكون المصرى، فمن ناحية الجنوب مرصد قبة أبى الهواء، والثانية كانت عند الحدود الشرقية فوق جبال سيناء ، وبنيت الثالثة غرباً فوق جبل السلوم، أما الرابعة والأخيرة فبنيت على أطلال منارة الاسكندرية القديمة، وقد طمرت القباب الثلاث على مدار الزمن لأسباب تفصيلها مغو، وحكاياتها مغرية بالإفاضة ، لكنها تخرج بنا عن السياق وليس هذا مكانها ، أما الرابعة ، قبة أبى الهواء ، فقد شاء لها التاريخ أن تبقى ، ألاّ يصيبها الفناء والعدم مثل نظيراتها ، وأن تظل وحيدة ، متوحدة بذاتها ، شاهدة على تاريخ أمة ، حافظة لتراثها ، وند من أوتاد عزتها ، مستودع لأسرارها وسرائرها ، كنز كلما اقترب منه أحد لافتضاض بكارته ، حل شفرة طلسمه ، باء بفشل مؤكد ، ورجع عنده الخسران، وما اقترابى إلا بمقدار ، فما أنا من رجالها، لأسعى لسبر غورها، للخوض فى معامعها وزعم العلم بكل ما يحيط بها، لا لست كذلك، ورحم الله رجلاً عرف قدر نفسه، إنما أنا حوّام طوّاف حولها علّى آتى منها بقبس ، أو تصيبنى بنفحة، أو تصحح مساراتى ومداراتى، توطرنى داخل مجرتى ، تجعلنى أدور فى فلك خاص بى وحدى ، بعيداً عن النجم وكواكب وشهب ونيازك لا أنتمى إليها ، ومع ذلك أنسب لها ، وهذا من قصر النظر ، فشتان بين طبخ أمى ، وطبخ زوجتى ، المادة واحدة ، لكن النَفَس يختلف ، وهو حديث شرحه يطول ، ويخرج بنا عن السياق - فانتبه .

يحدّث ابن تهانى أنه عندما بدأ التفكير فى بناء المرصد ، تم اختيار ثلاثة معماريين من ثلاث بقاع مختلفة ، كل منهم تخصص فى طريقة أصبحت تعرف به ، الأول يدعى محب الدين الساسانى ، لندرة فنه أصبح علماً من أعلام العمارة الساسانية ، آثاره باقية ، أشهرها ما هو موجود فى «المدائن» عاصمة دولته والمسمى بطاق كسرى ، أودع فى هذا البناء الضخم كل خبرته وبراعته فى عمارة القباب ، له مصنفات كثيرة أهمها كتاب «اللباب فى عمارة القباب» ، الثانى جاء من الأندلس ، اسمه صفى الدين ، لكنه عرف بالأندلسى ، له مؤلف شهير وحيد ، نادر فى تصنيفه أسماه «أنساب القباب فى الجاهلية والإسلام» الكتاب تتبع تاريخى للقباب ، أول من فكر فى إنشائها ، أول قبة ظهرت على وجه الأرض ، من الذى بناها ، تطور القباب من زمن إلى آخر طرق عمارة القباب ، المواد المستخدمة على مر العصور ، أشهر عمّارها ، الغرض منها ، من سميت بأسمائهم .. أما المعمارى الثالث فمن مصر ، قيل أن شجرة نسبه معروفة ، نقية ، ينتمى إلى أحد فراعين مصر العظام فى عصر الأسرات ، شرب الصنعة على أيدى أجداده ، ينسب له مصطلح «قباب الهواء» وله مصنف فى هذا الباب كان متداولاً فى وقته أسماه «عقد اللواء فى بناء قباب الهواء» ، المعمارى يدعى نور الدين الضبعى ، نسبة إلى بلدته كوم الضبع ، جمع نور الدين بين عمارة القباب وعمارة المراصد ، وكان عليه وحده يقع العبء الأكبر ، تكملة ما بدأه صاحباه بعد مقتلهما ، المصدر لا يعرف متى بدأت عمارة القباب ، ولا فى أى عصر شيدت ، لذا فقد أغفل تاريخ ميلاد كل من

المعماريين الثلاثة، وإن لم يغفل تاريخ وفاة اثنين منهم هما محب الدين الساساني، وصفي الدين الأندلسي نقلاً عن كتاب «فتوح مصر وأخبارها، كذا عمارتها وآثارها» لابن إدريس البرلسي، الذي ذكر في حوادث سنة ثلاثمائة قبل الميلاد أن شخصين صعدا إلى قبة أبي الهواء وألقيا بنفسيهما فغرقا في النيل، وقال إنهما أصابتهما لوثة قبل أن يلاقيا حتفهما، وأن الأقوال تضاربت حول موتهما، فقيل إنهما دس إليهما سمٌ في الطعام يذهب بالعقل بعد مدة من تناوله، وإنهما ألقيا بنفسيهما من تأثير السم، وقيل إنهما تخلصا من حياتهما بعد اكتشافهما عيباً في البناء لا يمكن تداركه وإصلاحه. ويعلق ابن تهاني قائلاً : إن المعماريين الثلاثة عاشوا في القرن الثالث الهجري وإن كان لا يعرف تاريخ مولدهم تحديداً إلا أن ما خلفوه من آثار يدل على ذلك، فكيف يتأتى وجودهم قبل الميلاد بثلاثة قرون إلا إذا كانوا غيرهم ، لكن هذه الحادثة تلقى ظلالاً قوية حول تحديد تاريخ القبة ، وهي تجيب في نفس الوقت على السؤال الذي شغل أذهان المؤرخين لعقود طويلة : أيهما أسبق في الظهور القبة أم المرصد ؟ وإذا كانت القبة قد أنشئت أولاً، فلأي غرض أنشئت ؟ وفي هذا الصدد، فهناك أقوال كثيرة، بعضها لا يعدو كونه حكايات وأساطير تداولتها العامة زمناً طويلاً حتى أخذت صفة التاريخ الرسمي والذي رجع إليه مؤرخون متأخرون، لا باعتباره حكايات، وإنما باعتباره تاريخاً معتمداً، وأبرز دليل على ذلك ما أورده ابن إدريس البرلسي من إلحاق أسماء بناة القبة والمرصد في حوادث سنة ثلاثمائة ، والثابت تاريخياً من الوثائق التي عثر عليها المؤرخ ابن حاجب ونشرها تحت عنوان «أوراق ووثائق القبة»، إنها كانت مقراً لطائفة

دينية مكونة من تسع وأربعين عضواً، كـانت هذه الطائفة تنادى بعبادة النيل باعتـباره المصـدر الحقيـقى للحياة ، وتـسموا بعـبدة النيل، أو طائفـة التسع وأربعون، وهو العدد السرى الذى كشـفت عنه وثائقهم لقطع أجزاء جسد أوزوريس المنثورة فى النيل، وقد اختـفت هذه الطائفة من الوجود ولم تترك سـوى بعض النصـوص الدينية التى كـانت تتلى فى صـولاتهم، بعـد ذلك اتخذتها طائفة أخرى مقراً سـرياً لنشر دعوتها، وقد لعبت هذه الطائفة دوراً هائلاً فى العـصر الإسلامـى الوسيط، وقبـل كل ذلك، فإن أمراء الـفراعين كانوا يوصون بالدفن حولها لاعتقادهم أنها معبر آمن للحياة الأبدية .

التاريخ بين الواقع والأسطورة.

تقول أوراق ووثائق القبـة التى جمعها ابن حبـاحب فى مخطوطة تحمل تاريخ القرن الرابع الهجرى ، وهى نفسها التى نشرها وعلق عليها ماسينيون فى طبعتها الأولى ، أنه بعد اختفاء المعمارى الساسانى ، والآخر الأندلسى ، وقع عبء تكملة عمارة المرصد علـى يدى نور الدين الضبعى ، الذى جعل لها أربعة أبواب ، كل باب يطل على جهـة من الصحراء ، وجعل على كل باب رصداً يخـبر بقدوم غـريب على مسيـرة يوم ، وهذا الرصد على هيئة رجل نصف جالس ، يحـمل فى يده بوقاً ويتـحرك على قاعـدة تجرى على عجل ، وذلك كله من النحاس الأصفر ، فإذا لمح شيئاً آتياً من جهته ، انطلق البوق وتحرك الرصد دائراً فى كل الاتجاهات ، أما القبـة،فقد شـيدت على هيئة السماء ، لرصد سكانها من شمس وقمر ونجوم وشهب ونيازك وحركة دوران الأرض حول الشمس وجميع التفاعلات التى تحدث فى مجرة درب التبانة بحسابات فلكية دقيقـة . ويعلق ماسينيون على تلك النقطة فيقول إن

نور الدين الضبعى اكتشف دوران الأرض حول الشمس قبل جاليليو بعدة قرون ، ودليله على ذلك هو ما صنعه نور الدين ، فقد جعل القبة تدور حول الشمس مرّة كل أربع وعشرين ساعة وأسماها الدورة الصغيرة ، وهناك دورة سنوية تسمى المتوسطة ، أما الدورة الكبرى فتحدث كل مائة عام ، أما كيف كانت القبة تدور ؟ كيف جعل أرضية القبة هى الدنيا ، وسقف القبة سماءها بكل ما تحويه ؟ كيف كان يتنبأ بسقوط مطر ، أو احتراق نيزك ، تكوّن نجم يصل إلى اكتماله بعد خمسة ملايين من السنين ، أفول لنجم آخر واحتراقه.، كيف حدّد الأنواء والأزمنة ؟ كيف سمّى الشمس والنجوم والأقمار والليل والنهار وساعات تغير فصول السنة وهبوب الرياح وسقوط الأمطار وربط حركة مدّ وجزر البحار بظهور القمر وحركته فى السماء فذلك كله هو ما تضمنه كتابه الجامع «عقد اللواء فى بناء قباب الهواء» لمن شاء الرجوع إليه ، انظر على سبيل المثال الفصل المعنون بـ الأزمنة والأنواء ، وفصل : القبة ظاهرة كونية ، كذلك الفصل التالى القبة أصل الإنسان ، وفيه يثبت بما لا يدع مجالاً للشك أنه لو لم توجد القبة لاخترعها الإنسان ، وأنها تلازمت جنباً إلى جنب ، مع ظهور آدم عليه السلام ، وأن الإنسان الأول عرف أشكالها البدائية عن طريق النظر إلى بطن الأنثى الحامل وهى تنتفخ وتتكور فتأخذ شكل قبة كاملة .

يتحدث ماسينيون فى مقدمته لأوراق ووثائق القبة عن نقطة فى غاية الأهمية متخذاً من الفصول الثلاثة التى أشرنا إليها سابقاً من كتاب نور الدين الضبعى سنداً لكلامه، فيقول إن هذه الفصول قد جاء من نسخها بعد كتابة نور الدين لها بثلاثة قرون، ونسبها لنفسه، وقد فعل ذلك أكثر من مؤلف دون إشارة للأصل، هناك على سبيل المثال كتاب الأزمنة لأبى على

محمد بن المستنير المعروف بقطرب، وكتاب الأزمنة والأمكنة للمرزوقى، الأزمنة والأنواء لابن الأجدابى، كتاب الأنواء لابن قتيبة، كتاب الأيام والليالى والشهور ليحيى بن زياد الفراء، وهذا يقود إلى فكرة أن كثيراً من المصادر الأساسية فى التراث العربى مجهولة المؤلف حتى الآن، لأنها نسبت خطأ إلى بعض الشخصيات الشهيرة فى عصرها، وأغفل التاريخ مؤلفيها الحقيقيين مثل كتاب رسائل إخوان الصفا الذى ظل مجهول المؤلف إلى أن ذكر أبى حيان التوحيدى مجموعة المؤلفين الذين قاموا بكتابة الرسائل الاثنتين وخمسين فى كتابه الإمتاع والمؤانسة، فتناول الناس هؤلاء المؤلفين باعتبارهم حقيقيين، والحقيقة التى كشفت عن نفسها بعد عدة قرون هى أنهم من اختراع أبى حيان، إنما مؤلف هذه الرسائل شخص واحد لجأ إلى هذه الحيلة لاتهام الخليفة له بالزندقة والخروج على الدين، وقد ترك رسالة كتبها فى آخر حياته بعنوان «عين الحسود» كشف فيها عن اسمه الحقيقى وهو ابن تماضر البصرى، وأن سبب العداوة والبغضاء التى كنها له معاصروه هو أنه خرج على الناموس التأليفى، وألف ما لم يكن مألوفاً من قبل

المراصد الأربعة .

بعد مقتل محب الدين الساسانى وصفى الدين الأندلسى ، وجد نور الدين الضبعى نفسه يعمل وحيداً ، وكان عليه إكمال ما بدأه صاحباه ، فأتم البناء فى عشر سنوات ، جعل المراصد الأربعة متطابقة فى صنعتها ، إذا تحرك رصد يخبر بقدوم غريب ، تحركت الثلاثة الأخر فى التو واللحظة ، أما كيف جعلها تختفى كلها فى لحظة واحدة ، فما زال السر مجهولاً ،

أوراق القبة لم تشر لذلك ، لكنه مؤكد بحادثة دخول الفاطميين مصر ، فقد دلت الأرصاد على قدومهم ، ومع ذلك اختفت بيدى نور الدين نفسه الذى كان قد مرّ على اختفائه مائة سنة لحظة الغزو ، لكن المؤكد أنه شوهد هو وتمرد ، الجارية التى عشقها ، عشية الغزو فوق القبة ، وهى حكاية تناقلتها الرواة ، وذكرتها أوراق القبة .

حكاية نور الدين مع الجارية تمرد

لَمّا التقى المعماريون الثلاثة ، حددت إقامتهم فى مكان سرى لا يعلمه سوى نفرقليل من رجال الخليفة ، وكانت أبحاثهم عن بناء المرصد تتم فى سرية تامة ، لا أحد غير الثلاثة يعرف سر البناء ، دهاليزه ، ممراته وسراديبه ، اختفائه إذا ما داهم الأعداء ، ظهوره مرّة أخرى ، قدراته الهائلة على شن حرب شاملة ، أسلحته الخفية المجهولة فى ذلك الوقت ، ومن بينها سلاح المغناطيس الذى كشفت عنه أوراق القبة إذ تقول إنه بواسطة قوانين الجاذبية، توصل المعماريون الثلاثة إلى عمل مغناطيس هائل الحجم يجذب إليه كل كائن حى ولا يتركه قبل أن يشفط دمه من العروق ، تقول الأوراق إنه فى ذلك الوقت كانت الدولة العباسية توشك على انهيارها ، بل إنها كانت تلفظ أنفاسها الأخيرة ، وكان الخليفة العباسى يدرك أنه لو قُدِّر لهذا البناء أن يتم ، فسوف ينقذ دولته من الضياع والوقوع فى أيدى الفاطميين الذين بدأوا فى تكوين دولتهم الجديدة ، ولم تكن أعينهم خافية عن مصر التى سوف تصبح فيما بعد عاصمة دولتهم ، وكان المرصد يمثل تحدياً جديداً أمامهم لابد من اجتيازه ، وقد أوعزوا لرجالهم فى مصر بألا يدعوا هذا البناء يتم بأية طريقة ، وقد تمكن فريق اغتيالاتهم من طائفة الفداوية من دس

السم لمحب الدين الساسانى وصفى الدين الأندلسى فى طعامهما ، فأكلا ولم يأكل معهما نور الدين فنجا ، لكن السبب الحقيقى لنجاته هو ذلك اللقاء الذى تم بينه وبين محبوبته تمرد جارية الخليفة ومحظيته فى نفس الليلة التى أكل فيها المعماريان الطعام المسموم . ما حقيقة هذا اللقاء ؟ وكيف تم ؟ هل تم بإيعازمن الخليفة ورجاله كما قيل فى بعض الروايات ؟ وهل كانت هناك محاولة لإنقاذ المعماريين الثلاثة من مؤامرة تسربت بعض خيوطها ؟ ولماذا تم إنقاذ نور الدين فقط عن طريق تمرد ؟ وما هو الدور الذى لعبته الجارية على رجال القبة ؟ أسئلة لا تجيب عليها الأوراق إجابة شافية ، حتى قصة عشق نور الدين الضبعى وتمرد لا تؤكدها أيٌ من مصادر تلك الفترة ، على الرغم من ذيوعها وانتشارها وتسربها إلى بعض القصص الشعبى ، مثل قصة تودد الجارية فى ألف ليلة وليلة ، وهى فى الأصل قصة تمرد الجارية ، كذلك قصة حكاية نور الدين مع الجارية تمرد التى كان عازفوا الرباب يتغنون بها ، بل إن هناك قصة تحمل عنوان «فى ذكر مرصد أبى الهواء» كانت متداولة فى وقتها تحكى عن كيفية بناء المرصد وذكر المعماريين الثلاثة الذين وقعوا فى حب جارية ، وكيف قتل نور الدين منافسيه حتى يفوز بمحبوبته تمرد ، وتظل هناك نقطة أخيرة لم تحسمها أوراق القبة أو القصص الشعبى أو أقوال المؤرخين الذين تناولوا القبة والمراصد الأربعة ، ألا وهى اختفاء نور الدين وتمرد وظهورهما بعد مائة سنة من فوق القبة أثناء الغزو وقد تحولا إلى طيفين. وتلك حكاية أخرى ليس هذا أوانها.



تقرير أخير حول القبة

فى البدء كانت القبة

بهذه العبارة أستهل بإيجاز ليس فيه محل للإبهام ، تقريرى ، أكتبه لكل جهات الدنيا ، فقد ينجح مسعاي لإنقاذ ما تبقى ، للحيلولة دون الانهيار التام لشاهد على عز قوم كانوا فيما مضى بناة حضارة تشهد لهم ، لا عليهم. تقريرى أكتبه لله وللوطن ، لا أمالئ حاكماً أو محكوماً ، مجرد من كل هوى فى نفسى ، اللهم إلا الحقيقة وحدها أضعها أمامى ، لا أحيد عنها، وقد يسأل متنطع لم ير من كل ما سقناه إلا قشرته فضاع منه الجهور : هل خلت حياتنا من كل مساوئها ومشكلاتها حتى تسوق لنا حواديت وخرافات عن بناء لا يسمن ولا يغنى ، هل اكتفينا من كل شىء فما بقى لنا إلا التسلية ؟ والجواب عندى له وجهان :

أولهما : أن القبة حقيقة وواقع كبناء عاش دهوراً وحقباً وأزمنة لا يعلمها إلاّ من عاشها .

وثانيهما : أننا لو افترضنا جدلاً بأن القبة ما هى إلا خرافة - وهو افتراض غير مقبول علمياً وتاريخياً - فإننا نقول وبالله التوفيق إن كثيراً من حقائق العلم ، كانت فيما مضى محض خرافة ، وإن تاريخ العالم يمتلئ بخرافته ، وإن كل منا يعيش خرافته الخاصة ويصدقها ، وهى أكثر واقعية من الواقع ذاته ، ونرجع إلى ما كنا فيه من السياق .

القول فيمن رأى القبة قبل المرصد

هناك إجماع بالقدم ، القبة أزلية ، ظهورها على الأرض تزامن مع ظهور الخلق ، البعض يرى أن أول ظهورها لم يكن بمصر ، إنما كان بالهند ، توجد آثار تدل على ذلك ، أحد جبال الهند الشهيرة يسمى «بجبل القبة» ، وهناك حكاية متداولة تحكى كيف انتقلت القبة إلى مصر واستقرارها فى موضعها، ومن رأى القبة فى زمنها الأول قلة ، أسماؤهم معروفة ، هولاء كانوا موعودون بها ، لم تظهر لغيرهم ، فلم يكن الثبات حالها ، اختفاؤها كان تاماً ، ظهورها المفاجئ على مشارف كل قرن مقدر ومحسوب بدقة لنا الآن، وهو ما لم يكن معروفاً من قبل .

القول فى أن القبة بناء حجرى لا ضر منها ولا نفع

وهو قول مردود عليه ، ذلك أن القبة عاشت أحداثاً لم يعشها بناء غيرها، وتحدث الشواهد بأنه ما امتلكها أحد ، إلا وامتلك الدنيا ، إذا ظهرت واستقرت ، استقر كل شيء ، اختفاؤها انتكاس للأرض والنفوس وانفلات زمام أمور الكون ، وفى هذا المعنى قيل :

أنا إن قدّر الإله مماتى
لا ترى الشرق يرفع الرأس بعدى



بناة القبة

لم يحفظ لنا التاريخ أسماء بناة القبة ، لكن من ا لمعروف أنها بنيت أكثر من مرّة على مدى تاريخها ، أما من هو بانيها الأول ؟ أول من فكر فى الإنشاء ؟ واضع اللبنة الأولى فى البناء العملاق ؟ أمر غير معروف ومحير، تضاربت الآراءحوله ، رأى يقطع بأنها خلقت مثل الأرض والسماء والنجوم والكواكب ، ورأى ينادى باعتبارها من أفعال البشر ، فالقبة بنت الإنسان ، وهو ما فجر القضية الشهيرة فى العصر الوسيط : هل القبة مخلوقة أم أزلية ؟ لكننا نؤكد بما لا يدع للشك سبيلاً إلى نفوسنا حقيقة أن القبة مثلها مثل كل مخلوقات الله وجدت منذ الأزل لضرورة ملحة ، ومع مرور الزمن ، تغيرت أوضاعها ، واستقرارها فى أرض غير تلك التى وجدت عليها ، ذلك أن التحولات التى صاحبتها كثيرة ، نشوءها فى أرض غير الأرض ، انتقالها وثباتها على جبل أبى الهواء ، ظهورها واختفاؤها المفاجئ ، تحولها بعد ذلك إلى مرصد ، اختفاء المرصد عقب دخول الغزاة ، انعكاس كل حضارات الشرق القديمة على البناء يدل على بناته ، فمن المؤكد أنهم شرقيون ، وأنهم كانوا أمناء لتراث أمتهم ، من بينهم حفظ لنا التاريخ اسم واحدة تدعى دلوكة ، حكمت البلاد عقب غرق فرعون وجنوده إثر تتبعهم للنبى موسى فى البحر ، قصة المطاردة والغرق معروفة ، من شاء الاستزادة فليقرأ كتاب «السيرة المحبوكة فى أيام الملكة دلوكة» . الكتاب فريد فى نوعه ، يحكى تلك الفترة الحالكة والمجهولة من التاريخ ، ما الذى تحدث به فرعون قبل الغرق ، كيف وافته منيته بغتة ، سكرات موته

كيف كـانت ،حديثه إلى جنوده لحظـتها ، مناجـاته لنفسه ، الكتـاب يجيب على سؤال تردد : هل تاب فرعون قـبل غرقه ورجع إلى ربه ؟ بأى كلمات التوبة تفوه إذا كان حدث ذلك ، خروج دلوكـة على الملأ لتعلن نفسها ملكة على النساء والأطفال خـلفاً لفرعون الغريق ، تفكيـرها فى بناء حائط يلتف حول كل البلاد عرف بعد ذلك بحائط العجوز ، إدراكها العلاقة بين اختفاء القبة وغـرق الفرعون ، شروعهـا فى إقامة بناء على هيئة القـبة ليكون رمزاً للقبة المختفية . أسماء كـثيرة فوق حائط البناءالمدور ، أى هذه الاسماء كان الصانع الأول ؟

لم يكشف التاريخ عن كل أجوبة الأسئلة .

خيرى عبد الجواد

بولاق الدكرور
يناير ١٩٩٨

الفهرس

قائمة إصدارات
مركز الحضارة العربية

روايات ..

إينارو	د. على نهمى خشيم
تحولات الجحش الذهبى	لوكيوس أبوولوس ترجمة د.على نهمى خشيم
مسالك الأحبة	خيري عبد الجواد
العاشق والمعشوق	خيري عبد الجواد
الخروج إلى النبع	محمد قطب
حافة الفردوس	نبيل عبد الحميد
العميرة	د. عبد الرحيم صديق
حمدان خليفة	أحمد عمر شاهين
ترانزيت	ليلى الشربيني
مشوار	ليلى الشربيني
الرجل	ليلى الشربيني
رجال عرفتهم	ليلى الشربيني

قصص قصيرة ..

مطربة الغروب	جمال الغيطانى
مخلوقات الأشواق الطائرة	إدوار الخراط
حرب بلاد نعم	خيرى عبدالجواد
حكايات الديب رماح	خيرى عبدالجواد
حرب أطاليا	خيرى عبدالجواد
سيرة عزبة الجسر	سعد الدين حسن
خلف النهاية بقليل	وحيد الطويلة
الممنوع من السفر	شوقى عبد الحميد
شجرة الخلد	سعد القرش
شهقة	سعيد بكر
أيام هند	سيد الوكيل
فره حمام	يوسف فاخورى
خبرات أنثوية	قاسم مسعد عليوه
الفوز للزمالك والنصر للأهلى	عبد اللطيف زيدان
ليس هناك ما يبهج	عبده خال
لا أحـــــد	عبده خال
أحزان رجل لا يعرف البكاء	خالد غازى
الشاعر والحرامى	عزت الحريرى
رشفات من قهوتى الساخنة	محمد محى الدين

شعر ..

سراب القمر	فاروق خلف
إشارات ضبط المكان	فاروق خلف
قصائد حب من العراق	البيـاتى وآخرون
أول الرؤيا	إبراهيم زولى
رويدا باتجاه الأرض	إبراهيم زولى
نصف حلم فقط	عماد عبد المحسن
منيـــا تناديـنـا	طارق الزياد
صلاة المودع	صبرى السيد
من فصول الزمن الرديء	درويش الأسيوطى
غربة الصبح	محمد الفارس
الغربة والعشق	مجدى رياض

عطر النغم الأخضر — عمر غراب

العجوز المراوغ يبيع أطراف النهر — نادر ناشد

هذه الروح لي — نادر ناشد

في مقام العشق — نادر ناشد

نحو على الأصابع — نادر ناشد

إذهب قبل أن أبكي — د. لطيفة صالح

مسرح ..

هذه الليلة الطويلة — د.أحمد صدقي الدجاني

اللعبة الأبدية - (مسرحية شعرية) — محمد الفارس

مملكة القرود — محمود عبدالحافظ

دراسات ..

آلهة مصر العربية — د . علي فهمي خشيم

رحلة الكلمات — د . علي فهمي خشيم

بحثاً عن فرعون العربي — د . علي فهمي خشيم

أباطيل الفرعونية — سليمان الحكيم

مصر الفرعونية — سليمان الحكيم

هاجس الكتابة — د . أحمد إبراهيم الفقيه

خيبات عصر جديد — د . أحمد إبراهيم الفقيه

حصاد الذاكرة — د . أحمد إبراهيم الفقيه

الجات والتبعية الثقافية — د. مصطفى عبد الغني

ضد هدم التاريخ وموت الكتابة — أحمد عزت سليم

في المرجعية الاجتماعية للفكر والإبداع — محمد الطيب

زمن الرواية : صوت اللحظة الصاخبة — مجدي إبراهيم

البعد الغائب : نظرات في القصة والرواية — سمير عبد الفتاح

أعلام من الأدب العالمي — علي عبد الفتاح

المثل الشعبي بين ليبيا وفلسطين — خليل إبراهيم حسونة

أدب الشباب في ليبيا — خليل إبراهيم حسونة

العنصرية والإرهاب في الأدب الصهيوني — خليل إبراهيم حسونة

تراث ..

كشف المستور من قبائح ولاة الأمور — د . أحمد الصاوي

رمضان .. زمان — د . أحمد الصاوي

القصص الشعبي في مصر — إعداد خيري عبد الجواد

إغاثة الأمة في كشف الغمة

الفاشوش في حكم قراقوش

الحكمة المنية لابن المقفع

فنون ..

ماهي السينما — صلاح أبو سيف

قضايا المونتاج المعاصر — د . عفت عبد العزيز

الصوت والضوضاء — د . مصطفى عبد المطلب

بالإضافة إلى :

كتب متنوعة : سياسية - قومية - دينية - معارف عامة - أطفال .

خدمات إعلامية وثقافية (اشتراكات) : ملخصات الكتب - وثائق - النشرة الدولية - دراسات عربية - معلومات - ملفات صحفية موثقة.

الآراء الواردة في الإصدارات لا تعبر بالضرورة عن آراء يتبناها المركز